بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

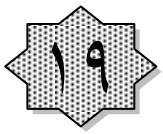

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ١٩ ـ ذي الحجة ١٤٢٩هجرية قمرية

آذر ١٣٨٧هجرية شمسية / كانون الاول (ديسمبر) ٢٠٠٨م

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: 88321616 9821+هاتف: 88321411 9821+

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥-١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقــع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ١٩

الحج في منظار التقريب ٤

رسائل القرآن ٨

نداء السيد القائد إلى حجاج بيت الله الحرام ١٤

أطياف الحج ٢٣

التقريب بين المذاهب والعقلانية المطلوبة ٢٩

العقيدة والمنهاج ٤٠

مفاهيم هامة في التقريب ٥٠

وحدة القانون والعبادات ٦٣

الذنب يحجب الدعاء ٧٣

الحركة العلميّة في الأندلس ٩٠

عطش هاجر ١٠٣

في معنى التسامح الإسلامي.. وتجلياته ١٠٥

التقريبيون عاشقون ١١٨

الحج
في منظار التقريب

مسيرة التقريب نظرت دائمًا إلى الحج باعتباره ساحة توحيد القلوب والخطى. وباعتباره الفرصة السنوية العظيمة للتعارف والتآلف ورص الصفوف.

نستعيد ونحن في موسم الحج ما كتبه الاستاذ المرحوم محمد محمد المدني في مجلة رسالة الإسلام القاهرية الناطقة باسم دار التقريب بين المذاهب الإسلامية. يقول بمناسبة صدور عدد من رسالة الإسلام في ذي الحجة:

«يصدر هذا العدد ... وأفئدة المسلمين في كل شعب تهوي إلى وفد الله من الحجاج والعمار والزوار، أولئك الذين سمعوا رنين الأذان الذي صدع به رسول الله إبراهيم، تلبية لأمر الله عزوجل حيث يقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

لقد سَرَت هذه الدعوة في أعماق التاريخ مسرى الدماء، من الآباء إلى الأبناء، حتى جاء خاتم النبيين فقررها بأمر الله ركنًا من أركان دينه الحنيف،

وجعلها شعيرة مفروضة إلى يوم الدين: ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾».

ثم يذكر عطاء الحج على ساحة التقريب فيقول:

«إن أركان الإسلام كلها توحي بوجوب التضامن والالتفاف حول غرض شريف واحد: فالشهادتان هما قلب الإيمان وأساس التوحيد والوحدة، وعنوان اتفاق كلمة المسلمين على أنه ليس لهم إلا إله واحد، ورسول واحد. والصلاة تطبيق روحي لهذا الإيمان، لأنها اتجاه إلى الله، وحمد له، ودعاء لرسوله وآل رسوله وعباد الله الصالحين. والصوم مظهر من مظاهر إيثار الإله الحق بالانخلاع له من الشهوات والرغبات ومظهر من مظاهر الوحدة الرائعة، يجمع المسلمين حيثما كانوا بجامعة سارية فيهم طول ليلهم ونهارهم. والزكاة تضحية لله، توحي بما يريده لعباده من التعاون والترابط وأن يكونوا جميعًا أجزاء لبنيان واحد، أو أعضاء لجسد واحد.

أما الحج فإنه لباب ذلك كله، إنه كالخلاصة المركزة لجميع العناصر التي يقوم عليها بناء الإسلام، ويحيا بها المسلمون حياة العزة والكرامة.

إن المسلمين جميعًا، لا فرق بين شعب منهم وشعب، ولا بين طائفة وطائفة، يخرج الألوف منهم عن أوطانهم، تاركين الإقليمية وراءهم، إلى إقليم واحد جعل الله فيه مناسكهم، لا يشعر الواحد منهم إلا بأنه مسلم يدين بالله ربًا، وبمحمد نبيًا ورسولا، وبالقرآن حاكمًا وإمامًا، وبالكعبة مصلى وقيامًا، ويلتقي شرقيهم وغربيهم وعجميهم وعربيهم، في رحاب هي لهم جميعًا، لأن فيها مقدساتهم ومنابع تاريخهم، ومشارف عزهم، ويبكون فرحًا وهم عليها مقبلون، وأسفًا وهم عنها مرتحلون.

ويذكّر المسلمين بزوال الحالة الطائفية في موسم الحج ويقول:

هل يذكر السنيُّ ـ وهو في هذه الرحلة الروحية، وأمام هذه المشاهد القدسية ـ أنه سني؟ وهل يذكر الشيعي أنه شيعي؟ أم هم جميعًا مسلمون قرآنيون، بسنة محمد عاملون، وعلى محبة محمد وآله منطوون؟.

هل للسنة هناك بيت يطوفون به وللشيعة بيت؟ هل لهؤلاء مسعى ولأولئك مسعى؟ هل تقف طائفة في هذه الناحية من عرفات وطائفة في تلك؟ هل

يعتقد السني وهو أمام القبر الطاهر أن هذا الرسول بعث إليه وحده من دون أخيه الشيعي؟ أو هل يعتقد الشيعي وهو أمام المزارات المعظمة لآل رسول الله الأطهار وصحبه الأبرار، أن هؤلاء الأبطال هم مَثَلُه هو من دون أخيه السني؟.

كلا إنهم جميعًا يحرمون إحرامًا واحدًا، ويطوفون طوافًا واحدًا، ويقفون بعرفة، وينزلون بمزدلفة، ويرمون الجمار، وينحرون، ويذبحون، ويقصدون إلى مسجد الرسول مشتاقين، ويقفون أمام جدثه الطاهر خاشعين، ويزورون آله وصحبه معتبرين».

ثم يتجه إلى ربّ العالمين يسأله بأسلوب أدبي بليغ وهو سؤال موجّه في الواقع إلى المسلمين بأجمعهم ويقول:

«رباه! هل ظنّ المسلمون أنك أردت لهم هذه الوحدة في مظهرها الرائع حين يحجّون، ثم أبَحْتَ لهم أن يتفرّقوا شذرَ مذرَ وهم إلى أهلهم راجعون؟ " سبحانك هذا بهتان عظيم، ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾».

رسائل القرآن

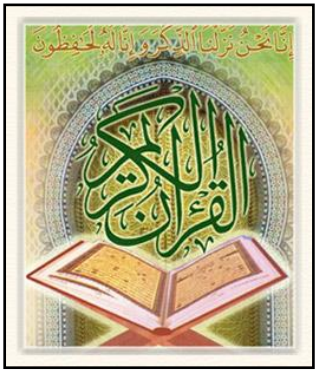

بسم الله الرحمن الرحيم

محسن قراءتي*

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

الرسائل:

- النكال عذاب أثره باق وظاهر، ليُعتَبَر به. وعن الإمام الصادق(ع): العبرة ﴿لما بين يديها﴾ أي للمبتلين بها، ﴿وما خلفها﴾ أي للأمم التالية وتشملنا نحن المسلمين. وكل الانتصارات والهزائم عبرة للأجيال التالية.
- الاعتبار والاتّعاظ يحتاج إلى روح التقوى: ﴿موعظة للمتقين﴾.

---

* ـ داعية إسلامي معروف.

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

الرسائل:

● سميت السورة بالبقرة لمناسبة القصة التي تذكرها الآية وما يليها. والأمر بذبح البقرة ورد في التوراة، سفر التثنية، الفصل ٢١، على أنه قانون قضائي. وملخّص القصة أن رجلاً من بني إسرائيل عُثِرَ عليه مقتولاً، وقاتله مجهول. شبّ بين القوم نزاع، وكل قبيلة اتهمت الأخرى بذلك. ولحلّ المشكلة ذهبوا إلى موسى عليه السلام.

فقال لهم: ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ وتضربوا الميّت بقطعة من جسد البقرة المذبوحة، فيحيى الميّت ويُخبركم بالقاتل. ﴿قالوا: أتتخذنا هُزُوًا﴾ ؟ أي أتستهزئ بنا؟ ، فاستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين.

● «الجهل» في القرآن يقابل «العقل» لا «العلم»، ويعني السفاهة. ولما كان الاستهزاء بالآخرين علامة السفيه، استعاذ موسى بالله أن يكون ممن سفه عقله.

● إذا لم يكن أمر الله ملائمًا لذهننا وذوقنا، ولم نستطع فهمه، فلا يجوز إنكاره: ﴿ إن الله يأمركم... أتتخذنا هزوًا﴾ .

● الاستعاذة بالله إحدى طرق التحصين، وعصمة الأنبياء في

الاعتصام بالله والاستعاذة به: ﴿ أعوذ بالله...﴾ .

● الاستهزاء من عمل الجَهَلة والسفهاء: ﴿ أتتخذنا هُزُوًا؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ .

● الجهل خطر يستعيذ أولياء الله بالله سبحانه منه: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ .

● في مشهد واحد يُثبت الله سبحانه: التوحيد، والقدرة الإلهية، والنبوة، ومعجزة موسى والمعاد .

٦٨- ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ﴾

الرسائل:

● حين أدرك بنو إسرائيل أن الأمر في غاية الجدّ، بدأوا باللجاج واختلاق الأعذار. واحتمل بعض المفسرين أن يكون ذلك من القاتل بأن بثّ فيهم هذه الأعذار كي يخفي جريمته. مع ذلك فطريقتهم في التعامل مع نبيهم في هذه الحادثة تؤكد خصلتهم في اللجاج والعناد.

● سؤالهم كان مقرونًا بقلّة أدبهم: ﴿ ادع لنا ربك﴾ وكأن ربّ موسى هو غير ربهم! ومع ذلك جاءهم الجواب: ﴿ إنها بقرة لا فارضٌ ولا بِكرٌ﴾ أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة ﴿ عوان بين

ذلك﴾ أي متوسطة بين الحالتين.

● الاستجابة لتعاليم ربّ العالمين لابدّ أن تكون مقرونة بالسرعة والابتعاد عن الترديد: ﴿ فافعلوا ماتؤمرون﴾ .

٦٩- ﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾

الرسائل:

● هذه الآية تؤكد أن بعض هؤلاء القوم كانوا يعرفون القاتل ويخفونه، ولذلك عادوا إلى اللجاج والسؤال عن لون البقرة!! فجاءهم الجواب: ﴿إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونها﴾ أي صافية اللون، لا يشوبها لون آخر. و﴿تَسُرّ الناظرين﴾ أي إن لونها يبعث البهجة والسرورَ في نفوس الناظرين

● واضح أن القوم بأسئلتهم قد ضيّقوا على أنفسهم الخيار، ولذلك ثمة نهيٌ عن سؤالٍ في غيرِ محلّه. قال سبحانه: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تسؤكم﴾ .

وفي نهج البلاغة عن علي بن أبي طالب(ع): «وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسيانًا فلا تتكلّفوها».

● تقرير أن اللون الأصفر الصافي يسرّ الناظرين ورد أيضًا في نصوص دينيّة أخرى.

٧٠- ﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

الرسائل:

● الاعتدال قيمة من القيم الإنسانية. ثمة أفراد يتسرّعون في قبول الأمر لأدنى دلالة. وثمة آخرون يقابلون البيان الواضح الصريح: ﴿ أن يذبحوا بقرة﴾ بالوسوسة والتردّد. وهذه هي المرة الثالثة التي يعيد القوم فيها السؤال عن البقرة.

● لو أن بني إسرائيل كانوا قد استجابوا لدى صدور الأمر بالذبح لأدّوا ما عليهم، ولكن ضيّقوا على أنفسهم فضاقت عليهم دائرة الاختيار. وفي مجمع البيان عن الرسول(ص) قال: «إنهم أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم».

● الانشغال بالمسائل الفرعية يبعد الإنسان عن المسائل الأساسية: ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ .

● خصلة اللجاج تجعل الحقَّ مُشتَبهًا على الإنسان: ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ .

● هداة طريق الله يتحلّون بسعة الصدر، ولا يأبهون بما يواجهونه من صلافة وتعنّت، فالقوم كرروا مرارًا كلمة ﴿ربك﴾ وفيها من سوء الأدب مالا يخفى، ولكن موسى(ع) لم ينفعل تجاه ذلك.

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾

الرسائل:

● إنها: ﴿ لاذلول..﴾ أي ليست من النوع المذلَّل لحرث الارض ولسقيها بالماء.

و﴿ مسلّمة﴾ خالية من العيوب.

و﴿ لاشية فيها﴾ أي لا يشوبها لون آخر.

بعد كل هذه التفاصيل وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاستجابة.

● حين اضطروا إلى ذلك كانت إجابتهم تتضمن سوء أدب آخر إذ قالوا: ﴿ الآن جئت بالحقّ﴾ وكأنه لم يأت قبل ذلك بالحق!!

● البقرة التي أُمروا بذبحها ليست من النوع الفعّال في الإنتاج الاقتصادي: ﴿ لاذلولٌ تثيرُ الأرضَ، ولا تَسقي الحرثَ﴾. وهي رسالة في أسلوب تنفيذ المشاريع، أي إن التنفيذ يجب أن لا يؤدي إلى هدم مصادر الإنتاج والاقتصاد.

● ما يُنْفَقُ في سبيل الله يجب أن يكون سالمًا: ﴿ مُسَلَّمَةٌ﴾. وفي أضحية الحج يجب أن تكون سالمة أيضًا.

● الغرور والهَوَس يصلان عند الفرد درجة يرى كل ما وافق ميوله بأنه الحق: ﴿ الآن جئتَ بالحقّ﴾ .

نداء السيد القائد

إلى حجاج بيت الله الحرام

موسم ١٤٢٩هـ

• الحج مدرسة فلاح الإنسان وعزّته

• الكعبة المشرفة مصدر لقوام الأمة وقيامها • الإسلام بدأ مرحلة جديدة من ازدهاره وعزته بفضل صحوة الأمة

• بناء الحضارة الإسلامية الحديثة سيتحقق بفضل الله • ساحة العالم الإسلامي شهدت انتصارات إسلامية باهرة خلال العقود الثلاثة الأخيرة

• قسوة العدو تنمّ عن ضعفه وعجزه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

الحج مدرسة تربوية

إن أرض الوحي قد جمعت، مرة أخرى، حشود المؤمنين في

ضيافتها السنوية. وقد جاءت النفوس التواقة من أرجاء العالم إلى مهد الإسلام والقرآن بهدف أداء المناسك التي تجسد وجهًا للدرس الأبدي الذي يعلّمه الإسلام والقرآن للبشرية، إذا أُمعِنَ النظر فيها. كما أن تلك المناسك تشكل بدورها خطى رمزية لترجمة هذا الدرس إلى حيّز العمل والتطبيق.

إن الهدف من هذا الدرس العظيم، هو فلاح الإنسان وعزته الأبدية؛ وطريق تحقيق ذلك يتمثل في تربية الإنسان الصالح وتكوين المجتمع الصالح:

ـ ذلك الإنسان الذي يعبد الله الواحد الأحد عبادة قلبية وعملية، ويطهر نفسه من التلوثات الأخلاقية والأهواء المنحرفة.

ـ وذلك المجتمع الذي يعتمد في تكوينه على العدالة والحرية والإيمان والحيوية والنشاط وجميع معالم الحياة والتقدم.

إن العناصر الرئيسية لتحقيق هذه التربية الفردية والاجتماعية مدرجة ومضمونة في فريضة الحج: فمنذ لحظة دخول الإحرام والخروج من حيّز المميزات الفردية وترك الكثير من اللذائذ والأهواء النفسائية،.. إلى عملية الطواف حول رمز التوحيد، وإقامة الصلاة في مقام إبراهيم، محطم الأصنام والمضحّي بالنفس والنفيس،.. ومن السعي المتسارع بين الجبلين،

إلى الشعور بالهدوء والاطمئنان في رحاب وادي عرفات بين حشد كبير من الموحدين من كل لون وعرق،... إلى قضاء ليلة مصحوبة بالذكر والابتهال في المشعر الحرام حيث يأنس كل قلب إلى الله بانفراد رغم تواجده بين ذلك الحشد المكثف،.. ثم الحضور في منى ورجم الرموز الشيطانية، ثم تجسيد عملية التضحية المفعمة بالمعاني العميقة، وإطعام الفقير وابن السبيل، كل ذلك يشكل عملية تعليم وتدريب وتمرين وتذكار.

وتنطوي هذه المجموعة المتكاملة على الإخلاص والصفاء والانقطاع عن الشواغل المادية من جهة، وعلى السعي والجهد والمثابرة من جهة أخرى؛ كما تنطوي على الأنس إلى الله والاختلاء به من جهة، وعلى التلاحم والإخلاص والتناغم مع المخلوق من جهة؛.. الاهتمام بتنقية وتصفية القلب والروح من جهة، وتعلق القلب بانسجام الجسد الكبير للأمة الاسلامية من جهة؛... الخشوع أمام الحق جل وعلا من جهة، والوقوف بعزيمة صلبة أمام الباطل من جهة؛.. وأخيرًا العروج شوقًا إلى نعيم الآخرة من جهة، والعزيمة الراسخة لإضفاء الجمال والحلاوة على الحياة الدنيا من جهة أخرى. إن كل ذلك قد تشابك هنا في بعضه البعض حيث يتم تعليمه والتدريب عليه جملة واحدة:

﴿ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .

وهكذا تكون الكعبة المشرفة ومناسك الحج مصدرًا لقوام المجتمعات البشرية وقيامها، كما أنها مفعمة بالمنافع والمكاسب للناس: ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ و﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾.

عودة الحياة الإسلامية

على المسلمين من أي بلد وأي عرق كانوا أن يقدّروا أكثر من أي وقت مضى هذه الفريضة وأن تكون أكثر وضوحًا وإشراقًا أمام الأمة الإسلامية، كما أن الأمل قد ازداد، أكثر من أي وقت، في تحقيق الأهداف التي رسمها الإسلام للمسلمين أفرادًا ومجتمعات. فإذا كانت الأمة الإسلامية قد عانت خلال القرنين الماضيين من الانهيار والهزيمة أمام الحضارة المادية الغربية والمدارس الإلحادية بنوعيها اليميني واليساري، فإن المدراس السياسية والاقتصادية الغربية هي التي باتت اليوم – في القرن الخامس عشر الهجري – متورطة في الأوحال، ومعرّضة للضعف والانهيار والهزيمة. وإن الإسلام قد بدأ مرحلة جديدة من ازدهاره وعزته بفضل صحوة المسلمين واستعادتهم هويتهم، ومن خلال طرح الفكر التوحيدي ومنطق العدالة والقيم الروحية.

إن الذين كانوا في الماضي القريب يعزفون على وتر اليأس،

معتبرين أنه قد ضاع الإسلام والمسلمون، بل ضاع أساس القيم الروحية والتدين، إنهم يرون اليوم بأم أعينهم انتعاش الإسلام وعودة حياة القرآن والإسلام، كما يرون بالمقابل ما يعتري تدريجيًا أولئك المهاجمين من ضعف وزوال. إنهم يصدقون فعلا هذه الحقيقة باللسان كما بالقلب.

إنني أقول وبكل ثقة إن هذا ليس إلا بداية الطريق. فإن تحقق الوعد الإلهي بكامله – أي انتصار الحق على الباطل وإعادة بناء أمة القرآن والحضارة الإسلامية الحديثة – قادم في الطريق:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

إن انتصار الثورة الإسلامية في إيران وإقامة صرح النظام الإسلامي العتيد، كان دليلاً على تحقق هذا الوعد المحتوم وذلك في أول مرحلة وأهمها، مما حول إيران إلى قاعدة متينة لفكرة سيادة الإسلام والحضارة الإسلامية. فقد انبعث أمل جديد في العالم الإسلامي وانبعث حماس في النفوس مع بزوغ هذه الظاهرة الشبيهة بالمعجزة، سيما في ذروة صخب المادية وتعرض الإسلام لمهاجمة اليمين واليسار – الفكري منهما والسياسي – ثم صمود هذه الظاهرة وصلابتها أمام الضربات السياسية والعسكرية

والاقتصادية والإعلامية الموجّهة إليها من كل حدب وصوب . وكلّما مرّت الأيام، ازدادت هذه الصلابة، بحول الله وقوته، وتجذّر ذلك الأمل أكثر فأكثر.

إرهاصات الانتصار الاسلامي

خلال العقود الثلاثة التي مرت على هذا الحدث، ظلت منطقة الشرق الأوسط والبلدان الأسلامية في آسيا وأفريقيا مسرحًا لهذه المواجهة المظفرة. فإن كلا من: فلسطين والانتفاضة الإسلامية وقيام الدولة الفلسطينية، ولبنان والانتصار التأريخي الذي سجله حزب الله والمقاومة الإسلامية ضد الكيان الصهيوني المستكبر السفاح؛ والعراق وإرساء أسس حكومة مسلمة شعبية على أنقاض حكم الطاغية صدام ونظامه الدكتاتوري الملحد؛ وأفغانستان والهزيمة المخزية للمحتلين الشيوعيين والنظام المحلي العميل لهم؛ وفشل جميع المشاريع الاستكبارية الأمريكية الرامية إلى السيطرة على الشرق الأوسط؛ والانتشار الواسع لموجة الإقبال على الإسلام في معظم دول المنطقة أو جميعها، وبوجه خاص بين الشباب والمثقفين؛ والتقدم الهائل الذي أحرزته إيران الإسلامية في المجالات العلمية والتقنية على الرغم من تعرضها للمقاطعة والحصار الاقتصادي؛ والشعور بالهوية والتمايز بين الأقليات المسلمة في غالب الدول الغربية..

.. كل ذلك أدلة واضحة على انتصار الإسلام وتقدمه في

ساحة مواجهة الأعداء خلال هذا القرن، أي القرن الخامس عشر الهجري.

أيها الإخوة والأخوات، إن هذه الانتصارات كلها حصيلة الجهاد والإخلاص. فعندما سُمع صوت الله من حناجر عباده، وعندما دخلت الساحة هممُ مجاهدي سبيل الحق وقوتهم، وعندما وفّى المسلم بعهده مع الله،... عندئذ حقق العلي القدير وعده وتغيّر مسار التأريخ: ﴿أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾.

إن هذا ليس إلا بداية الطريق، فهناك عقبات كأداء مازالت تعترض طريق الشعوب المسلمة. وإن اجتياز هذه العقبات لن يكون ممكنًا إلا بالاستعانة بالإيمان والإخلاص، وبالأمل والجهاد، والبصيرة والصبر والصمود. فلا يمكن طيّ هذا الطريق باليأس والسلبية، أو باللامبالاة وضعف الهمة، أو من خلال التسرّع والارتباك، أو إساءة الظنّ بصدق ما وعد به الله تعالى.

إن العدوّ الجريح قد دخل الساحة – وسوف يدخلها – بكل ما لديه من قوة. فلابد من يقظة وعقلانية وشجاعة مع معرفة بالفرص المتاحة. في هذه الحالة ستبوء كل جهود العدو بالفشل. كما أنه خلال هذه العقود الثلاثة أيضا، ظل العدو – المتمثل

بشكل رئيسي في أمريكا والصهيونية – متحدياً في الميدان مستخدماً كل ماكان بحوزته من حول قوة. ولكن لم يكن نصيبه سوى الاخفاق. كما أنه سيفشل في المستقبل أيضاً.

عجز الأعداء

إن قسوة العدوّ تنمّ في أغلب الأحيان عن ضعفه وعدم حكمته انظروا إلى الساحة الفلسطينية وبخاصة قطاع غزة؛ إن التحركات الهمجية الفظيعة التي يقوم بها العدو هناك، والتي قلّ مثيلها في تأريخ مشاهد الظلم البشري، إنما تدل على ضعفه وعجزه عن التغلّب على الإرادة الصلبة لدى أولئك الرجال والنساء والشباب والأطفال الذين وقفوا – وبأيد خالية من السلاح – بوجه الكيان الإسرائيلي العسكري وحاميته أمريكا وهي قوة عظمى، وهم يدوسون تحت أقدامهم إرادة هؤلاء الأعداء، الذين يريدون منهم الإعراض عن حكومة حماس. سلام الله على هذا الشعب الصامد العظيم. لقد ترجم أهالي غزة وحكومة حماس عملياً هذه الآيات القرآنية الخالدة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ و﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

ولن يكون المنتصر النهائي في هذا الصراع القائم بين الحق والباطل إلا الحق. إن الشعب الفلسطيني الصابر المظلوم هو الذي سينتصر على العدو في نهاية المطاف: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

بالإضافة إلى عجز هؤلاء في تحطيم مقاومة الفلسطينيين حتى يومنا هذا، فإن مصداقية النظام الأمريكي ومعظم الأنظمة الأوروبية قد تعرّضت لهزيمة نكراء في الساحة السياسية بعد ما انكشفت زيف مزاعم تلك الأنظمة في دعم الحرية والديمقراطية وشعار حقوق الإنسان، بحيث لا يمكن لها تدارك هذه الهزيمة بسهولة. إن الكيان الصهيوني الفاقد للمصداقية، بات مفضوحًا أكثر من أي وقت مضى، كما أن بعض الأنظمة العربية قد خسرت في هذا الاختبار الهائل ماكان قد تبقى لها من مصداقية، إن كانت تملكها أصلا: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

والسلام على عباد الله الصالحين.

السيد علي الحسيني الخامنئي

الرابع من ذي الحجة الحرام لعام ١٤٢٩هـ . ق

أطياف الحج

سيد قطب*

• الحج موسم ومؤتمر • الحج مؤتمر اجتماع وتعارف • الحج مؤتمر تنسيق وتعاون • الذكريات ترفّ في الحج كالاطياف • طيف ابراهيم واسماعيل وهاجر ومحمد بن عبدالله • الحج مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطى وتوحيد القوى • الحج تنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

للتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة. عرّف الله مكانه لإبراهيم(ع) وملّكه أمره ليقيمه على هذا الأساس: ﴿ ألا تشرك بي شيئًا ﴾: فهو بيت الله وحده دون سواه. وليطهره لمن به من الحجيج، والقائمين فيه للصلاة: ﴿ وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم،

* - من «الظلال»

لا لمن يشركون بالله، ويتوجهون بالعبادة إلى سواه.

ثم أمر الله إبراهيم (ع) – بأني البيت – إذا فرغ من إقامته على الأساس الذي كُلّف به أن يؤذن في الناس بالحج؛ وأن يدعوهم إلى بيت الله الحرام ووعده أن يلبي الناس دعوته، فيتقاطرون على البيت من كل فج، رجالا يسعون على أقدامهم، وركوبًا ﴿ على كل ضامر ﴾ جَهَدَهُ السيرُ فَضَمَر من الجهد والجوع: ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾..

وما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم(ع) إلى اليوم والغد. وما تزال أفئدة من الناس تهوي إلى البيت الحرام؛ وترف إلى رؤيته والطواف به.. الغني القادر الذي يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله؛ والفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه. وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم(ع) منذ آلاف الأعوام.

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

والمنافع التي يشهدها الحجيج كثيرة فالحج موسم ومؤتمر. الحج موسم تجارة وموسم عبادة. والحج مؤتمر اجتماع وتعارف، ومؤتمر تنسيق وتعاون. وهو الفريضة التي تلتقي فيها الدنيا والآخرة كما تلتقي فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة.. أصحاب السلع والتجارة يجدون في موسم الحج سوقًا رائجة، حيث تُجبى إلى البلد الحرام ثمرات كل شيء.. من أطراف الأرض؛ ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق في أرجاء الأرض في شتى المواسم. يتجمع كله في البلد الحرام في موسم واحد. فهو موسم تجارة ومعرض نتاج؛ وسوق عالمية تقام في كل عام.

وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح، وهي تستشعر قربها من الله في بيته الحرام. وهي ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التي تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد.

طيف إبراهيم الخليل (ع) وهو يُودِعُ البيت فلذة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى ربه: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾..

وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في

تلك الحرة الملتهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدّها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل.. ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء . وإذا هي زمزم. ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب.

وطيف إبراهيم(ع) وهو يرى الرؤيا، فلا يتردد في التضحية بفلذة كبده، ويمضي في الطاعة المؤمنة إلى ذلك الأفق البعيد: ﴿قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟﴾ فتجيبه الطاعة الراضية في إسماعيل (ع): ﴿ قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾.. وإذا رحمة الله تتجلى في الفداء: ﴿وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين. إنّ هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم ﴾..

وطيف إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت، في إنابة وخشوع: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتتابع، حتى يلوح طيف عبد المطلب، وهو ينذر دم ابنه العاشر إن رزقه الله عشرة أبناء. وإذا هو عبد الله. وإذا عبد المطلب حريصًا على الوفاء بالنذر.

وإذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء وإذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء، والقدح يخرج في كل مرة على عبد الله، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هي الدية المعروفة. فيقبل منه الفداء، فينحر مائة وينجو عبدالله. ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم يموت! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير!

ثم تتواكب الأطياف والذكريات. من محمد رسول الله(ص) وهو يدرج في طفولته وصباه فوق هذا الثرى، حول هذا البيت.. وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفئ الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل.. وهو يصلي.. وهو يطوف.. وهو يخطب.. وهو يعتكف.. وأن خطواته(ع) لتنبض حية في الخاطر، وتتمثل شاخصة في الضمير، يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق في تلك الذكريات.. وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترفّ وتدفّ فوق هذا الثرى، حول ذلك البيت، تكاد تسمعها الأذن وتكاد تراها الأبصار!

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من

قبل وفي هذا﴾.. ويجدون محورهم الذي يشدّهم جميعًا إليه: هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعًا ويلتقون عليها جميعًا.. ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان.. ويجدون قوّتهم التي قد ينسونها حينًا.. قوّة التجمع والتوحّد والترابط الذي يضم الملايين. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد.. راية العقيدة والتوحيد.

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب. وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة في كل عام. في ظل الله. بالقرب من بيت الله. وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة. في أنسب مكان، وأنسب جو، وأنسب زمان.

فذلك إذ يقول الله سبحانه: ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾.. كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته. وذلك بعض ما أراده الله بالحج يوم أن فرضه على المسلمين، وأمر إبراهيم(ع) أن يؤذن به في الناس.

التقريب بين المذاهب والعقلانية المطلوبة

محمد علي التسخيري*

•يتميز الشوق الانساني عن الحيواني بالقناعات العقلية• الإنسان في مسير الإنسانية هو الحرّ الحقيقي • الإسلام يربّي في الإنسان العقلانية ويزيل المعوقات عن التنمية العقلية • المذاهب الإسلامية نشأت في ظل العقلانية • الحالة الطائفية أبعدت المذاهب عن العقلانية • تحوّل التقريب بفضل الجهود المخلصة إلى شجرة وارفة .

الإرادة والحرية

يتميز الإنسان بإرادته الحرة، وهذه الإرادة - وإن كانت نتيجة لأشواق وعواطف متنامية، حتى تصور البعض من الفلاسفة والنفسانيين أن الإرادة هي نفسها شوق متراكم - تتميز على الشوق الحيواني بأنها ترتبط بقناعاته العقلية في مجال «ما ينبغي فعله ومالا ينبغي» او ما يسمى بـ«العقل العملي»، وهي أمور

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

لا تتوفر في الحيوان. فالإرادة الإنسانية السوية - إذن ومهما كانت العواطف المتراكمة - تسير بهداية من العقل العملي، في حين تتحرك الإرادة الحيوانية بدافع شهواني انفعالي أعمى. ومن هنا اعتبر الإنسان الذي يتحرك بنفس هذا الدافع حيوانًا، بل هو أضل من الحيوان، لأن الله منحه الكابح الفطري وهو العقل فأهمله، يقول تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون اولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الاعراف ١٧٩).

فالحيوان يخلو من أي توجيهات عقلانية واعية محاسبة، ومثله الإنسان الغافل عن ما يملكه من طاقات.

ومن هنا كانت الحرية لدى الحيوان وشبيهه الإنساني حرية الشهوة والأهواء، وهي حرية منفلتة من عقالها ومخربة تجب السيطرة عليها في رأي الفلاسفة المسلمين بل والوضعيين أيضا؛

فهذا الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي يقول: «العقل العملي هو القوة التي تستنبط الواجبَ فيما يجب أن يُفعل من الأمور الإنسانية التي يفعلها في معاشه ومعاده، بخلاف القوة التي دونها فإن أفعالها حيوانية لافكرية».

ويوجه الفيلسوف الالماني المادي هيجل نقدًا إلى التعريف الرائج في زمانه للحرية بأنها «القدرة على فعل شيء نشتاق إليه»

واصفًا التعريف بأنه يوضح عدم البلوغ الفكري لأنه لايشير إلى الحق والحياة الاخلاقية وغير ذلك.

وهنا يذكر الاستاذ مرتضى مطهري أن «ملاك الشرف واحترام الحرية الإنسانية هو كونها في مسير الإنسانية، فالإنسان السائر في هذا المسير يجب أن يكون حرًا لا ذلك الذي اتبع شهواته حتى ولو كانت موجهة ضد البشرية».

سبل تربية العقلانية

ومن هنا وجدنا الإسلام يربي في الإنسان المسلم العقلانية في الارادة الفردية والاجتماعية وذلك بشتى الأساليب:

فهو يعتبر العقيدة الإسلامية بأركانها المركزية (التوحيد ، النبوة، المعاد) هي الإطار العام الذي يوجه هذه العقلانية بما يتبعها من مفاهيم عامة من قبيل:

-الهدفية في الكون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾

-والمسؤولية: ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾.

-والحرية الواعية : ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا﴾.

-والمحاسبة: ﴿ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾.

-والتوازن في الكون والموقف منه: ﴿والسماء رفعها ووضع

الميزان ألا تطغوا في الميزان﴾

-ورفض الظلم بشتى أنواعه: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾

ومن الظلم عدم إعطاء الحق لصاحبه والتطفيف: ﴿ولاتبخسوا الناس أشياءهم﴾ ﴿ويل للمطففين﴾.

نعم في هذه الأطر يربي الإسلام العقلانية في المسلم ويعمل على تنمية الجانب العقلي فيه ورفع المعوقات عن التفكير الصحيح.

برنامج التنمية الفكرية

أما عملية التنمية الفكرية والعقلية فلها برنامج متكامل يشمل - مما يشمل -الأمورَ التالية:

أ -فتحَ باب الحوار الإنساني البنّاء مع التحلّي بالموضوعية، واحترام الآخر، والتركيز على الأمور العملية، واتّباع المنهج الأحسن وغير ذلك.

ب -دفعَ الإنسان للتغيير نحو الأحسن، وعدم الجمود على وضع متخلّف، والتأكيد على بدء التغيير منه: ﴿إن الله لايغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾. وعملية التغيير هي من مختصات الإنسان عبر استفادته من قدراته العقلية.

ج -الدفع نحو التأمل والتدبر والتبين والاعتبار والتعقل

والـوعي: ﴿ليـدبّروا آياتـه﴾ ﴿ أَفَلَـمْ يَسِـيرُواْ فِـي الأَرْضِ فَيَنظُـرُواْ﴾ ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ ﴿وتعيها أُذُن واعية﴾ ﴿ولاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾

د -فسحَ المجال لعملية الاجتهاد.

هـ -الدفعَ نحو التشاور: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾

رفع المعوّقات

كما عَمَل على رفع معوقات التفكير السليم ومنها:

أ - المطلقـات النسـبية الوهميـة: ﴿مـا تعبـدون مـن دونـه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾

ب – الخرافات : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾.

ج – التقليد : ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع مـا ألفينـا عليـه آباءنـا أولـو كـان آبـاؤهم لايعقلـون شـيئًا ولايهتدون﴾.

د – الغفلة : ﴿ولاتكن من الغافلين﴾

وغير ذلك.

نشوء المذاهب الإسلامية في ظل هذه الروح العقلانية

ومن الواضح أنه لم يكن هناك شديد حاجة للاجتهاد في عصر الرسول(ص) بعد أن كانت الأحكام والمفاهيم تؤخذ مباشرة منه، وربما اجتهد بعض الصحابة فأقرهم الرسول على ذلك.

وكان الاختلاف بسيطًا، وعندما اتسعت الرقعة الإسلامية نزلت آية النفر التي قررت واقعًا، وشرعت أساسًا للاجتهاد وحجية خبر الواحد فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

ولكن وتيرة الاجتهاد ارتفعت بطبيعة الحال بعد وفاة الرسول(ص) وهكذا استمرت بشكل أشد في عصر التابعين إلا أن المذاهب لم تظهر بشكل واضح محدد المعالم إلا بعد هذا العصر.

ويرى الأستاذ السياس أن العالم الإسلامي شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع ١٣٨ مدرسة ومذهبًا فقهيًا، حتى أن الكثير من البلدان كان يمتلك مذهبًا خاصًا به، في حين ذكر الأستاذ أسد حيدر أنها كانت تزيد على الخمسين.

وكانت هذه المذاهب التي ظهرت بعد طبقة التابعين -كما يرى بعض العلماء -مذاهب فردية لم تُتَبَنَّ من قبل أتباع أصحابها، ولذلك انقرضت بانقراض أتباعها، وأخرى جماعية نضجت في ظل ما دَوّنه أصحابها وأتباعهم في مجموعات متكاملة.

ومن المذاهب البائدة.

١ -مذهب الحسن البصري (٢٣ - ١١٠هـ)

٢ -مذهب ابن ابي ليلى (٧٤ - ١٤٨هـ)

٣ -مذهب الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧ هـ)

٤ -مذهب سفيان الثوري (٩٧ - ١٦١هـ)

٥ -مذهب الليث بن سعد (توفي عام ١٧٥هـ)

٦ -مذهب ابراهيم بن خالد الكلبي (توفي عام ٢٤٠هـ)

٧ -مذهب ابن حزم داوود بن علي الاصبهاني الظاهري (٢٠٢ - ٢٧٠هـ)

٨ -مذهب محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠هـ)

٩ -مذهب سليمان بن مهران الاعمش (توفى عام ١٤٨هـ)

١٠ -مذهب عامر بن شرحبيل الشعبي (توفى عام ١٠٥هـ)

وغيرهم كثير.

أما المذاهب التي استمرت مع الزمن وحتى اليوم فهي:

١ -المذهب الإمامي الإثنا عشري وقد وسع معارفه الإمام الباقر والإمام الصادق من أهل البيت(ع). ٢ - المذهب الزيدي.

٣ -المذهب الحنفي. ٤ - المذهب الشافعي. ٥ -المذهب المالكي.

٦ - المذهب الحنبلي ٧ - المذهب الإباضي.

ولسنا في صدد البحث عن مقدمات نشوء المذاهب ولا عن عوامل الانقراض أو الانتشار، وهي عوامل علمية وموضوعية

ذكرها العلماء عند البحث عن عوامل الاختلاف.

فذكر ابن رشد ما يرتبط بتنقيح صغريات حجية الظهور أو حجية القياس وأضاف إليها السيد الحكيم الخلاف في الأصول ومباني الاستنباط، ويمكن أن نضيف إليه الخلاف في مناهج الاستدلال ومراحله.

وبالإضافة إلى هذه العوامل الموضوعية يمكن تصور عوامل معرفية ذاتية من قبيل سعة المعلومات وضيقها، وعوامل نفسية وفردية كمدى القدرة على التحليل الذهني، وكذلك لايمكن أن نغفل دور العوامل السياسية والتاريخية والمصلحية والاجتماعية وغيرها ، إلا أن الأهم من ذلك في بحثنا هذا هو ذكر النقاط التالية:

أولا : لقد كان ظهور المذاهب تعبيراً عن تطور في العقلانية الإسلامية وسداً لفراغ غياب الرسول الأعظم(ص) وانقطاع الوحي من جهة، وتوسع الحاجات، وكثرة الحوادث، وتعقد المجتمعات من جهة أخرى، وربما لتراكم المعارف الفقهية وانطراح الفروع المتصورة من جهة ثالثة. فهي إذن حالة طبيعية صحية حضارية.

ثانيا: وهذه المذاهب تشكل ثروة فكرية غنية للحضارة الإسلامية لايستهان بها ، كما تمنح الحاكم الإسلامي، وهكذا للفرد المسلم، مساحة للاختيار الأفضل في مجال عملية تطبيق الشريعة في الحياة الفردية (خصوصا إذا لم يتعين تقليد الأعلم)،

والاجتماعية باعتبار أن الرأي الذي ينتج عن عملية إسلامية معترف بها وهي الاجتهاد تصح نسبته إلى الإسلام، وحينئذ ينفتح أمام الحاكم الشرعي مجال واسع للمناورة وانتخاب الأصلح من الآراء مما يحقق المصالح (حتى لو لم يتفق الحاكم مع الرأي في اجتهاده الشخصي) بل يمكنه أن يقوم بعملية توفيق وتركيب بين الآراء للوصول إلى النظرية والمذهب الاجتماعي الأصلح مما يعبر أصدق تعبير عن المرونة الإسلامية.

ثالثا: هذه المذاهب - كما قلنا - شكلت غنى للحياة الإسلامية، وحالة طبيعية عقلانية كان الوصول إليها متوقعًا، إلا أن الذي حوّل هذه الظاهرة الطبيعية إلى ظاهرة سلبية على المسيرة الإسلامية هو ما نسميه بالتحول إلى الطائفية الضيقة، حيث سعت هذه الروح الطائفية للابتعاد عن التعقل والحوار الذي دعا إليه القرآن الكريم، ونسيان حالة التسامح والمداراة الإسلامية، والخوض في جدال عقيم في بعض الأحيان وممقوت أخلاقيًا. ورحنا نشهد فترات مريعة وأساليب لا إسلامية من التكفير والتفسيق والتبديع -كما يعبر الشيخ القرضاوي -مما أدى بعد ذلك إلى نزاع عريض سالت على أثره أنهار من الدماء والدموع، مما مزق الأمة وأزالها عن موقعها الحضاري المطلوب، وقتل أو أضعف الروح العقلانية التي رباها الإسلام بكل ما يلازمها من «الاجتهاد الحر» و«التشاور المثمر» و«التغيير البناء» و«الحوار

المنطقي»، وسيطرت مطلقات وهمية من قبيل «المذهبية المتفردة» و«الحق المحتكر» و«كفر الآخر» و«الاختصاص بالفرقة الناجية» وغير ذلك.

ومن هنا فنحن ندعو بجد لإعادة الحالة المذهبية إلى وضعها الطبيعي عبر إشاعة العقلانية المطلوبة وروح الحوار الإسلامي البناء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبر عنه بـ«حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية».

حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية

إن ما أُطلق عليه اسم «حركة التقريب» في العقود الأخيرة يمتلك جذورًا تمتد إلى أقدم العصور الإسلامية، لأنها تستمد اصالتها وحيويتها من أصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الأمة في صنع الحضارة الإنسانية أو الاسهام الفاعل فيها على الأقل.

لقد وضع علماء وشخصيات كبيرة في الأربعينات من القرن الميلادي الماضي اللبنات الأولى لهذه الحركة المباركة وجاهدوا حقًا في تبيين معالمها وكتبوا العديد من المقالات لترسيخها في النفوس، بعد أن أصّلوها وبينوا جذورها الشرعية وضرورتها المتنامية.

وقد نجحت في الفترة الأخيرة في التحول إلى إستراتيجية

فاعلة. بفضل الجهود الكبيرة التي بذلتها الإيسيسكو بقيادة أخينا الأستاذ الدكتور التويجري وهو نائب رئيس الجمعية العمومية في مجمعنا وقد منح هذا العام جائزة رجل التقريب في العالم الإسلامي.

ونحن سعداء حقًا إذ نجد هذه البذرة قد نمت وتحوّلت إلى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. حيث اهتمت بها المجامع العلمية كمجمع الفقه الإسلامي والإيسيسكو وجعلتها من أهم أهدافها. وأدخلها القادة المسلمون في اجتماعهم الاستثنائي بمكة المكرمة في الخطة العشرية للبلدان الإسلامية، واستقبلها العلماء بكل رحابة صدر.

خصوصًا بعد الحوادث التي جرت وتجري في باكستان وأفغانستان والعراق ولبنان وغيرها.

يا مَنِ يعلَمُ عِلَلَ الحركاتِ وحوادث السكون، ولا يخفى عليه عوارضُ الخطراتِ في محالّ الظنون، اجعلنا من الذين أوضحت لهم الدليلَ عليك، وفسحتَ لهم السبُلَ إليك، فاستشعروا مدارعَ الحكمة، واستطرقوا سُبُلَ التوبة، حتى أناخوا في رياض الرحمة، وسلموا من الاعتراض بالعصمة، إنك وليّ من اعتصم بنصرك.

علي بن الحسين زين العابدين (ع)

العقيدة والمنهاج

مرتضى مطهري

• الطبيعة البشرية هي التي تشخّص اللذة، والعقل يشخّص المصلحة • الإنسان يؤدي أعماله التدبيرية انطلاقًا من عقله وإرادته • هيمنة العقل والارادة على طبيعة الإنسان ونزعاتها تزداد كلّما ازدادا قوة • مفهوم السعادة هو من أعقد المفاهيم وأكثرها غموضًا • البشرية اليوم - ومن الأولى بشرية الغد - بحاجة إلى ما يوحّد اتجاهها .

المنهاج الفكري والعملي

ماهي الضرورة التي تفرض على الإنسان، باعتباره فردًا، أو عضوًا من أعضاء المجتمع، أن يتمسك بعقيدة معينة ومنهج حياتي معين؟

هل إن وجود العقيدة ضروري للفرد وللمجتمع؟

من أجل الإجابة على هذه الأسئلة لابد من مقدمة.

نشاطات الإنسان على شكلين:

ـ التذاذية.

ـ وتدبيرية.

النشاطات الالتذاذية هي التي يؤدّيها الإنسان بتأثير مباشر

من الغريزة أو الطبيعة أو العادة (باعتبارها طبيعة ثانوية) من أجل الحصول على لذّة أو التخلّص من أَلمَ. كاتجاه الإنسان نحو الماء حين يحسّ بالعطش، وهروبه حين يداهمه حيوان مفترس، وإشعاله لفّافة حين يشعر برغبة في التدخين.

مثل هذه الأعمال توافق الطبع والرغبة ولها ارتباط مباشر باللذة والألم.

العمل الملذّ يجذب الإنسان نحوه، والعمل المؤلم يبعد الإنسان عنه.

أما النشاطات التدبيرية فهي أعمال لا تنطوي بنفسها على جذب أو إبعاد، ولا يندفع الإنسان نحوها أو يبتعد عنها بتأثير غريزته وطبيعته، بل يؤديها الإنسان أو يبتعد عنها انطلاقًا من عقله وإرادته، ومن مصلحة يراها في أدائها أو الابتعاد عنها.

أي إن العلّة الغائية والقوة المحركة الدافعة للإنسان في مثل هذه النشاطات هي المصلحة لا اللذة.

الطبيعة البشرية هي التي تشخّص اللذة، والعقل يشخّص المصلحة.

اللذة تثير الرغبة والمصلحة تحفّز الإرادة.

الإنسان يشعر باللذة حين يؤدّي الأعمال الالتذاذية، ولا يحس بلذّة من الأعمال التي تنطوي على مصلحة. لكنه يشعر بالارتياح حين يتصوّر أنه يقطع، بعمله التدبيري خطوة على طريق

المصلحة النهائية، التي تتمثل بالخير والكمال أو بلذة مستقبلية.

الفرق واضح بين عمل ملذّ ومسرّ، وعمل لا يبعث على اللذّة بل ينطوي على الألم أحيانًا، لكن الإنسان يؤدّيه ـــ مع ذلك ـــ عن رضا وارتياح.

الأعمال التدبيرية ليست مُلذّة ولا مُسرة لبعد نتيجتها، لكنها مرضية.

الإنسان والحيوان يشتركان في اللذة والألم، لكن الإنسان وحده يختص بشعور الرضا والارتياح، أو الكره وعدم الارتياح، وهكذا الأمل فهو مما يختص به الإنسان.

الرضا والكره والأمل تقع في إطار المعقولات والأفكار البشرية لا في إطار الحواس والإدراك الحسّي.

قلنا إن الإنسان يؤدي أعماله التدبيرية انطلاقًا من عقله وإرادته، خلافًا للأعمال الالتذاذية التي يؤدّيها الفرد بتأثير الرغبة والإحساس.

الانطلاق من العقل، يعني أن القوة العقلية ترى في الأفق البعيد خيرًا ولذّة وكمالاً، وتكتشف طريق الوصول إلى ذلك الهدف، وإن صعب هذا الطريق أحيانًا، وتخطّط من أجل الوصول إليه.

والانطلاق من الإرادة، يعني أنّ الإنسان يمتلك قوة مرتبطة بالقوة العقلية تنهض بدور المنفّذ لقرارات العقل. وتعمل هذه

القوة أحيانًا على تنفيذ المشاريع الفكرية والعقلية على الرغم من مخالفة كل الأهواء والرغبات والنزعات الطبيعية.

طبيعة مرحلة الشباب تدفع الطالب الجامعي مثلا نحو النوم والأكل والشرب والراحة واللهو واللعب، لكن العقل المدبّر يرسم أمام هذا الطالب العاقبة السيئة لهذه الأعمال، كما يرسم أمامه المستقبل المشرق للجهود والأتعاب والترفّع عن الشهوات، ويأمره أن يختار الطريق الثاني لما فيه من مصلحة. وحينئذ يفضّل الإنسان اتّباع أوامر عقله على اتّباع أوامر طبيعته.

والمريض ينفر من طعم الدواء المرّ، لكنه يتناوله ويتجرّع مرارته انطلاقًا من أوامر العقل المدبر، ومن قوة الإرادة المتحكّمة في الرغبات.

هيمنة العقل والإرادة على طبيعة الإنسان ونزعاتها تزداد كلّما ازدادا قوة.

الإنسان في نشاطاته التدبيرية ينشد دومًا اتّباع نظرية واحدة وخطة مرسومة واحدة.

نشاطات الإنسان التدبيرية تزداد وتفوق نشاطاته الالتذاذية كلّما تكامل عقله وإرادته، بينما تزداد نشاطات الإنسان الالتذاذية، وتنحسر نشاطاته التدبيرية كلما اقترب من الإطار الحيواني، إذ إن نشاطات الحيوان التذاذية بأجمعها.

قد تصدر من الحيوان أحيانًا نشاطات تستهدف نتائج بعيدة

كبناء الوكر والهجرة وعملية التناسل، لكن هذه النشاطات لم يؤدّها الحيوان عن وعي أو تفكير أو اختيار أو تخطيط للوصول إلى هدف منشود، بل يقوم بها الحيوان انطلاقًا من إلهام جبري وغريزي.

الإنسان قادر على أن يوسّع نطاق نشاطاته التدبيرية ليستوعب هذا النطاق نشاطاته الالتذاذية أيضًا. وحينئذ تنضمّ النشاطات الالتذاذية إلى النشاطات التدبيرية، وتصبح كل لذّة منطوية على مصلحة، ويمسي كل نشاط طبيعي استجابة لنداء العقل إضافة إلى أنه استجابة لنداء الطبيعة. وعندئذ أيضًا، تتطابق الطبيعة والعقل، والرغبة والإرادة.

النشاطات التدبيرية بحاجة إلى الخطة والطريقة والوسيلة لبلوغ الهدف المطلوب، إذ إن هذه النشاطات تدور حول أهداف وغايات بعيدة.

عقل الفرد، بما يمتلكه من معلومات واطلاعات وتعاليم وقدرة على التشخيص، هو المخطّط والمنظّر والهادي والموجّه للإنسان حين يكون النشاط التدبيري محدودًا بإطار فردي.

هَبْ أن النشاطات التدبيرية للإنسان بلغت الذروة في الكمال، فهي غير كافية لاكتساب نشاطات الإنسان طابعا إنسانيًا.

النشاطات التدبيرية شرط لازم لإنسانية الكائن البشري، إذ إن عناصر العقل والعلم والوعي والتدبير تشكل نصف إنسانية

الإنسان، لكنها ليست شرطا كافيًا.

النشاطات الفردية تكتسب صفة إنسانية حين تتجه إلى ارتقاء سلّم السمو الإنساني إضافة إلى اتصافها بالطابع العقلي والإرادي، أو حين لا تتعارض هذه النشاطات -على الأقل- مع النزعات الإنسانية السامية. وإلا فإن أبشع الجرائم التي يرتكبها الموجود البشري تأتي أحيانا على أثر نشاطات بشرية مقرونة بالتخطيط والتدبير والذكاء وبُعد النظر، ولا أدلّ على ذلك من المخططات الاستعمارية الشيطانية.

وورد في المأثور وصفٌ لقوة التدبير البعيدة عن النزعات الإنسانية والإيمانية، والمسخّرة لخدمة الأهداف المادية والحيوانية أنها «نُكر» و«شيطنة».

النشاطات التدبيرية ليست إنسانية بالضرورة، بل، إذا دارت حول محور الأهداف الحيوانية، تصبح خطرة، أين منها خطورة الحيوان المفترس!!

الحيوان المفترس قد يفتك بإنسان إشباعًا لجوعته، أما الإنسان فقد يسخّر قوته التدبيرية لإبادة المدن الآمنة، وإزهاق أرواح ملايين الأفراد الأبرياء.

دعنا عن الصفة الإنسانية للنشاطات البشرية، ولنطرح هذا السؤال: هل بمقدور القوة العقلية أن تؤمّن جميع المصالح الفردية؟

لا أحد يشك في ضرورة القوة العقلية والفكرية وفائدتها في

إدارة الشؤون الفرعية المحدودة في الحياة.

الإنسان يواجه دائمًا في حياته أمورًا مثل اختيار الصديق وانتخاب الفرع الدراسي وانتخاب الزوج، واختيار المهنة، ومثل السفر والمعاشرة والتنزه، وأعمال البر، ومكافحة الانحرافات.. وغيرها من الشؤون الحياتية.

وليس ثم شك في حاجة الإنسان إلى التفكير في جميع هذه الأمور، إذ سيحقّق مزيدًا من النجاح في أعماله هذه إن ازداد تأمّلاً وتفكيرًا، فعن طريق التفكير يخطط الموجود البشري لأعماله، ثم ينفّذها ويحتاج أحيانًا في هذا المجال إلى الاستفادة من تفكير الآخرين وتجاربهم (مبدأ المشاورة).

هذا على صعيد الأمور الفرعية

وهل هذا الأمر يتيسر للإنسان على صعيد المسائل العامة لحياته الشخصية؟

هل تستطيع القوة العقلية أن تخطط لجميع جوانب الحياة الشخصية للإنسان، وتحقق له السعادة في جميع هذه الجوانب، أم إن قدرة هذه القوة محدودة بالشؤون الفرعية؟

نعلم أن بعض الفلاسفة اعتقدوا بهذا «الاكتفاء الذاتي»، وادّعوا أنهم اكتشفوا سرّ سعادة الإنسان وشقائه، وأكدوا قدرتهم على إسعاد أنفسهم بالاعتماد على العقل والإرادة. ومن جهة

أخرى، نعلم أيضا أننا لا نستطيع العثور على فيلسوفين متفقين في تشخيص طريق السعادة.

مفهوم السعادة الذي يبدو واضحًا جليًا في البداية باعتباره الهدف النهائي للموجود البشري هو من أعقد المفاهيم وأكثرها غموضًا.

حين تطرح الأسئلة عن معنى السعادة وعوامل تحقيقها، وعن معنى الشقاء وعوامله، تتضارب الأجوبة وتتناقض حتى يمكن القول إن الجواب على مثل هذه الأسئلة لايزال غامضًا مبهمًا.

سبب الغموض يعود إلى أن أبعاد الموجود البشري وإمكاناته وقدراته لاتزال مجهولة ولا يمكن التوصل إلى فهم معنى السعادة وسبل تحقيقها مادام الإنسان مجهولاً.

وأكثر من هذا، فالإنسان موجود اجتماعي، والحياة الاجتماعية تخلق للإنسان المشاكل والملابسات، وعليه أن يتخذ موقفًا منها.

الإنسان -باعتباره موجودًا اجتماعيًا -لا يستطيع أن ينشد سعادته مستقلا عن الآخرين، بل إن سعادته وكل ما يتعلق بهذه السعادة من سبل ووسائل ومعايير ترتبط ارتباطًا كبيرًا بسعادة الآخرين وسبلهم ووسائلهم ومعاييرهم. على الفرد -إذن - أن يبحث عن سعادته على طريق سعادة المجتمع وتكامله.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار مسألة الحياة الأبدية، وخلود الروح،

وعدم انطواء العقل على تجربة عن حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، فإن المسألة تصبح معقدة للغاية.

من هنا تفرض العقيدة نفسها باعتبارها ضرورة لامناص منها، من أجل سدّ الحاجة إلى نظرية عامة وتخطيط شامل منسّق منسجم، يضمن تحقيق سعادة المجموع وبلوغ الهدف الأساس للكمال الإنساني، وينطوي على الأهداف والوسائل وطرق العلاج ومعايير الصحة والخطأ والمسؤوليات والواجبات وعوامل دفع الأفراد نحو تحمل المسؤوليات والواجبات.

احتاج الإنسان إلى المنهج الحياتي – أو إلى الشريعة على حدّ التعبير القرآني - منذ بدء وجوده على ظهر الأرض، أو منذ الفترة التي اتسعت فيها حياته الاجتماعية وأدّت إلى الاختلافات.

وهذه الحاجة ازدادت بمرور الزمن كلّما ازداد نضج الإنسان وتكامله.

كانت أواصر الدم والعنصر والقومية والقبلية والوطنية تشكل فيما مضى «روحًا جماعية» تهيمن على المجتمعات البشريّة.

وكانت هذه الروح تفرز بدورها مجموعة من الأهداف الجماعيّة (وإن كانت غير إنسانية) وتضفي على المجتمع اتجاهًا موحّدًا.

نمو الإنسان وتكامله العلمي والعقلي أدّى إلى ضعف تلك

الأواصر و وهنها. العلم يميل إلى الفردية بحكم خاصيته الذاتية، ويؤدي إلى ضعف العواطف ووهن الأحاسيس.

البشرية اليوم -ومن الأولى بشرية الغد -بحاجة إلى ما يوحّد اتجاهها، ويمنحها أهدافًا مشتركة ويقدّم لها معايير للخير والشر. أي إنها بحاجة إلى فلسفة منتخبة واعية هادفة منطقية للحياة.. بحاجة إلى إيديولوجية كاملة شاملة.

البشرية اليوم بحاجة إلى مثل هذه الفلسفة للحياة أكثر مما مضى، فلسفة قادرة على أن تربط الفرد بحقائق تسمو على الفرد وعلى المصالح الفردية. ليس ثمة شك أن العقيدة والإيديولوجية اليوم من ضرورات الحياة الاجتماعية.

مَن القادر على تخطيط مثل هذه المدرسة الفكرية؟ عقل الفرد الواحد غير قادر على ذلك قطعًا.

هل عقل المجموع قادر على مثل هذه العملية؟

هل الإنسان قادر على وضع خطة شاملة للإيديولوجية المطلوبة بالاستفادة من مجموع تجارب الماضين والمعاصرين؟

لو علمنا أن الإنسان ذاته من أعقد المجهولات، فمن الطبيعي أن يكون المجتمع الإنساني وسعادته أكثر تعقيدًا وغورًا في المجهول.

مفاهيم هامة

في التقريب

التعاون في المتفق عليه

يوسف القرضاوي*

•المصيبة أن يكون البحث في المسائل الخلافية أكبر همنا • مشكلة الأمة في تضيع الأمور المتفق عليها بين جميع مذاهبها • المشكلة حقا هي وهن العقيدة وتعطيل الشريعة وانهيار الأخلاق • التعاون فريضة وضرورة • لنتعاون على غرس معاني الإيمان القرآني في نفوس الشباب • لماذا لا يتناسى الإسلاميون خلافاتهم الجزئية؟ • لابد من إحياء قاعدة: نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

بعض الفصائل التي تنتسب إلى الصحوة الإسلامية، أو العمل الإسلامي، مهتمة أكبر الاهتمام بالمسائل الخلافية، فهو شغلها بالنهار، وحملها بالليل.

حولها يتركز البحث، ولها تقام الدروس، وفيها يدور الجدل، ومن أجلها تحمى معارك الكلام والخصام.

وأنا لا أكره أن يبحث الناس في المسائل الخلافية، بحثًا علميًا مقارنًا يرجح أحد الرأيين أو الآراء، إذا قام بذلك أهل

* - داعية الاعتدال والتقريب.

الاختصاص، من العلماء القادرين المؤهلين لمثل هذا العمل العلمي الرصين، الجامع بين الفقه والورع والاعتدال.

ولكن الذي أكرهه : أن يصبح البحث في المسائل الخلافية أكبر همنا، ومبلغ علمنا، وأن نضخمها حتى تأكل أوقاتنا وجهودنا وطاقاتنا، التي يجب أن نوجهها لبناء ما تداعى أو تهدم من بنياننا الديني والثقافي والحضاري.

وأن يكون هذا الاهتمام والاشتغال على حساب القضايا التي لاخلاف عليها.

إنني أود لو أن رجال المسلمين جميعًا حرصوا على إطلاق لحاهم، فأحيوا هذه السنة من سنن الفطرة، وخرجوا من خلاف مَنْ أوجبها من الأئمة، وتميزوا عن غيرهم من الأمم، وفوّتوا الفرصة على رجال المباحث الذين يعتبرون اللحية دليل اتهام.

ومع هذا لا أودّ أن نشغل الناس بهذا، وأن نفسّق من لا يعفيها، فهذا أمر عمّت به البلوى، ولهذا أسفت حقًا حين ذكر لي بعض الثقاة من الشباب أن أحد المولعين بالخلافيات ألقى تسع محاضرات في وجوب إعفاء اللحية، وتحريم أخذ شيء منها. كما أسفت لأن أحدهم ألف رسالة سماها "نهي الصحبة عن النزول على الركبة" وهو أمر يتعلق بهيئة الصلاة، وفيه أخذ ورد، وأن آخر كتب رسالة أيضًا بعنوان : "الواحة في جلسة الاستراحة" إلى غير ذلك من الرسائل، والمقالات والمحاضرات التي تدور حول هذه

الأمور، التي اختلف فيها الأئمة، بين مثبت وناف، وسيظل الناس يختلفون فيها إلى ما شاء الله.

وسر أسفي هنا هو : التركيز على الأمور الخلافية والشدة على المخالفين، فيما يجوز التساهل فيه، على خلاف ما كان عليه سلف الأمة.

إن أي مراقب لأوضاع الأمة الإسلامية اليوم، يوقن تمام اليقين أن مشكلتها ليست في ترجيح أحد الرأيين، أو الآراء في القضايا المختلف فيها، بناء على اجتهاد أو تقليد. فالواقع أن الخطأ في هذه القضايا يدور بين الأجر والأجرين، لمن تحرى واجتهد، كما هو معلوم ومبسوط في مواضعه.

ولكن مشكلة الأمة حقًا في تضييع الأمور المتفق عليها من جميع مذاهبها ومدارسها.

مشكلة المسلمين ليست في الذي يؤوّل آيات الصفات وأحاديثها. وإن كان مذهب السلف أسلم وأرجح . بل في الذي ينكر الذات والصفات جميعًا، من عبيد الفكر المستورد من الغرب أو الشرق.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يقول : استوى على العرش بمعنى استولى كناية عن عظمة سلطانه تعالى، بل فيمن يجحد العرش ورب العرش معًا.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يجهر بالبسملة أو يخفضها أو لا يقرؤها في الصلاة، ولا فيمن يرسل يديه في الصلاة أو يقبضهما،

ومن يرفع يديه عند الركوع أو الرفع منه أو لا يرفعهما، إلى آخر هذه المسائل الخلافية الكثيرة المعروفة. إنما مشكلة المسلمين فيمن لا ينحني يومًا لله راكعًا، ولايخفض جبهته لله ساجدًا، ولايعرف المسجد ولا يعرفه.

مشكلة المسلمين ليست فيمن يأخذ بأحد المذاهب المعتبرة في إثبات هلال رمضان أو شوال، بل فيمن يمر عليه رمضان كما مرّ عليه شعبان، وكما يمرّ عليه شوال، لا يعرف صيامًا ولا قيامًا، بل يفطر عمدًا جهارًا نهارًا، بلا خشية ولا حياء.

مشكلة المسلمين ليست في عدم تغطية الوجه بالنقاب، واليدين بالقفازين، كما هو رأي البعض، بل في تعرية الرؤوس والنحور، والظهور ولبس القصير الفاضح، والشفاف الوصاف.. إلى آخر ما نعرف مما يندى له الجبين.

إن المشكلة حقًا هي وهن العقيدة، وتعطيل الشريعة، وانهيار الأخلاق، وإضاعة الصلوات، ومنع الزكوات، واتباع الشهوات، وشيوع الفاحشة، وانتشار الرشوة، وخراب الذمم، وسوء الإدارة وترك الفرائض الأصلية وارتكاب الحرمات القطعية، وموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

مشكلة المسلمين، إنما تتمثل في إلغاء العقل، وتجميد الفكر وتخدير الإرادة وقتل الحرية، وإهانة الحقوق، ونسيان الواجبات وفشو الأنانية، وإهمال سنن الله في الكون والمجتمع، وإعلاء الحكام

على الشعوب، والقوة على الحق، والمنفعة على الواجب.

مشكلة الأمة المسلمة الحقيقية نراها واضحة كالشمس في إضاعة أركان الإسلام ودعائم الإيمان وقواعد الإحسان، وهي الثلاثة التي سأل عنها جبريل رسول الله (ص) في الحديث الصحيح المشهور.

وفي آخر الحديث قال لهم النبي : «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» . وهو لم يكن منه إلا السؤال. لكن السؤال الحسن لون من التعليم، وهنا أسئلة ثلاثة شملت أسس الدين كله : عقيدة وعملاً، ظاهرًا وباطنًا.

ومن هنا كان الواجب على دعاة الإسلام الواعين أن ينبهوا على التركيز على مواطن الاتفاق قبل كل شيء، وأن يرفعوا شعار "التعاون فيما نتفق عليه" فإن هذا التعاون فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

وأعتقد أن ما نتفق عليه ليس بالشيء الهين ولا القليل، إنه يحتاج منا إلى جهود لا تتوقف، وعمل لايكل، وإرادة لاتعرف الوهن، يحتاج منا إلى عقول ذكية، وعزائم قوية، وأنفس أبية، وطاقات بناءة.

ألسنا متفقين على أن القرآن كلام الله، وأن محمدًا رسول الله؟

ألسنا متفقين على الإيمان بالله الواحد الأحد، الذي لم يلد

ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد؟

ألسنا متفقين على أنه تعالى متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص؟ ألسنا متفقين على كل ما وصف به القرآن الرب الأعلى جل جلاله من الأسماء الحسنى؟.

فلنتعاون على غرس معاني الإيمان القرآني في أنفس الناشئة والشباب، بعيدًا عما أدخله الجدل الفلسفي والكلامي في علم العقائد، وما أورثه الاختلاط بالملل والنحل الأخرى من خلافات فرقت الأمة شيعًا .

ألسنا متفقين على أن الإلحاد أعظم خطر يهدد البشرية، في أعزّ مقدساتها ؟ فلنتعاون على تحصين الشباب من وباء الإلحاد، ومقدماته من الشكوك والشبهات التي تزعزع العقيدة، وتلوث الفكر ولنضيء شموع الإيمان بأعظم حقائق الوجود وأجلاها، وهي: وجود الرب الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى... مستفيدين من بحوث العلم الحديث، الذي يكاد يجعلك ترى الله جهرة في إبداع خلقه.

ألسنا متفقين على أن الإيمان بالدار الآخرة، وعدالة الجزاء فيها، وقيام الجنة والنار، ركن في كل دين، وخصوصًا في الإسلام؟

فهو – مع الإيمان بالله تعالى – ينشئ في الإنسان الوازع الذاتي الداخلي الذي يحفّز على كل خير، ويردع عن كل شر، ويقوّي الإرادة في مواطن الضعف، ويمنح الأمل عند هجوم اليأس.

فلنتعاون – إذن – على تقويه الإيمان بالآخرة، واليقين بالجزاء، ولنطارد الشبهات التي تحاول أن تشك في هذه العقيدة العظيمة، أو الشهوات التي تشغل الناس عنها بمتاع قليل.

ألسنا متفقين على أركان الإسلام العملية الخمسة، فلماذا لا نتعاون على حسن تعليمها للمسلمين، واتخاذ أحسن الأساليب لدعوتهم إليها وترغيبهم فيها، وتذكيرهم بها، مستفيدين من الوسائل السمعية والبصرية المعاصرة؟

أولسنا متفقين على دعائم الإيمان الست : من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فلماذا لا نتعاون على تجليتها وتثبيتها، وإيصالها إلى عقول المسلمين وقلوبهم بلغة سهلة، تلائم يسر الإسلام، ووضوح القرآن، وتقدم العصر في وسائل البيان والإيضاح، دون أن ندخل في معارك الجدل والخلاف التي أثارها القدماء، أو يثيرها المحدثون وحسبنا أن نثبت ما أثبته القرآن، وننفي ما نفاه القرآن.

ألسنا متفقين على مكارم الأخلاق التي بعث الرسول ليتممها، والتي كانت سيرته(ص) تجسيمًا حيًا لها، سواء أكانت أخلاقًا ربانية، كالتوكل على الله، وشكر نعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والإخلاص له، والشوق إليه، والمحبة له والأنس بذكره.. الخ أم أخلاقًا إنسانية كالصدق والأمانة وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد والشجاعة، والسخاء والحياء والتواضع والنظام والتعاون... الخ.

فلنتعاون -إذن -على إشاعة هذه الفضائل، وترسيخ هذه القيم، حتى يشب عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولنطارد الرذائل المضادة لها، المدمرة للفرد، والمحطمة لكيان الجماعة، التي سماها الإمام الغزالي "المهلكات " وهو تعبير اقتبسه من الحديث النبوي؟!

ألسنا متفقين على مجموعة طيبة من الأحكام الشرعية القطعية الثابتة بمحكم القرآن والسنة، والتي أجمعت عليه الأمة، فغدت تجسد وحدتها الفكرية والشعورية والسلوكية؟

فلنتعاون على رعايتها والعمل على حسن تطبيقها، وحمايتها من عبث الذين يريدون أن يحولوا القطعيات إلى ظنيات، والمحكمات إلى متشابهات، وأن يجعلوا الدين كله عجينة طرية في أيدي المتلاعبين، يشكلونها كما تشاء لهم أهواؤهم المتسلطة، أو عقولهم القاصرة، أو كما تملي عليهم نزوات السلاطين، أو نزغات الشياطين.

ألسنا متفقين على أن الصهيونية اليوم خطر داهم : خطر ديني وخطر عسكري وخطر اقتصادي وخطر سياسي، وخطر اجتماعي، وخطر أخلاقي وثقافي وحضاري، وأنها تريد هدم الأقصى، وبناء هيكلهم عليه، وأنها تطمع في المدينة وخيبر، وأنها تخطط وتعمل، وتصل في النهاية إلى ما تريد، وأنها حققت أحلامًا كان يعتبرها المغرق في الخيال مستحيلات... فاغتصبت الأرض وشردت أهلها، ولا تزال مستمرة في عدوانها... وأنها تحاربنا من

منطلق ديني، تستثير به إيمان اليهود بتوراتهم وتلمودهم، ونبوءات أنبيائهم؟

فلماذا لا نتعاون على أن نحاربهم بمثل ما يحاربونا به : نحارب يهوديتهم المنسوخة بإسلامنا الخالد، ونحارب توراتهم المحرفة بقرآننا المحفوظ، ونحارب تلمودهم المحشو بالأباطيل بمواريثنا من السنة، الحافلة بالحقائق؟

لماذا لا نتعاون على أن نقف في وجه اليهودية الماكرة الزاحفة على إفريقيا وآسيا، ومنها بلاد إسلامية أو ذات أغلبية إسلامية، بألوان من الكيد . يجب أن نتنبه لها، ونجتهد في إبطال سحرها وأثرها؟

ألسنا متفقين على أن الغرب لم يتحرر حتى اليوم من روح الحروب الصليبية وأن هذه الروح لا تزال تحكم كثيراً من تصرفاته، كما يظهر ذلك بين الحين والحين، في وقائع شتى؟ لقد برز ذلك في موقف دول الغرب من قضية المرتد الماجن سلمان رشدي، ومن قضية حجاب الطالبات المسلمات في فرنسا، ومن التشكيك والتحريض ضد الصحوة الإسلامية، أو ما يسمونه "الأصولية الإسلامية" وهو ما صرحت به أجهزتهم الإعلامية، وامتلأت به تقاريرهم السرية؟

فلنتعاون -إذن -على التصدي لهذه الحرب الصليبية الجديدة، بأسلحتها الجديدة، وإمكاناتها الهائلة.

ألسنا متفقين على أن التنصير يغزو عالمنا الإسلامي بما

يملك من وسائل متطورة، وطاقات جبارة، ويغزو كذلك الأقليات الإسلامية المتناثرة في العالم، ويستغل حالات الفقر والجهل والمرض والجوع المنتشرة -للأسف -بين أبناء أمتنا في إفريقيا وآسيا، ويرصد لذلك مئات الملايين، بل آلافها، لينزع عن الأمة لباسها، بل ليسلخها من جلدها، ويحولها عن عقيدتها. وهو ما نجح فيه في كثير من الأقطار. وإن كان يعلن غير ذلك، استدرارًا للمزيد من المدد المادي والبشري، وتخديرًا للفريسة، حتى لا تفكر في مقاومة جادة؟

فلنتعاون كلنا على الوقوف في وجه هذا الغزو الديني الموجه إلى دين هذه الأمة وصميم عقيدتها، ولنبذل لنصرة حقنا، كما يبذلون لنصرة باطلهم، بل يكفي أن نبذل بعض ما يبذلونه.

ألسنا متفقين على أن "الاستعمار الثقافي" ما يزال يعمل عمله في عقول أجيالنا الصاعدة، من أبنائنا وبناتنا، رغم رحيل الاستعمار "العسكري". ولم تبرح آثاره قائمة في مؤسساتنا الثقافية والتربوية، وما يزال "الغزو الفكري" يخرّب العقول بالمفاهيم المغلوطة، والتصورات الفاسدة، والمعلومات الناقصة والمشوشة، وخصوصًا في كل ما يتعلق بالإسلام وشريعته وحضارته وأمته وصحوته يستوي في ذلك الفكر الليبرالي الرأسمالي، والفكر الماركسي الاشتراكي.

فلنتعاون جميعًا على أن نقاوم هذا الاستعمار، وهذا الغزو المدمّر، ولنعمل على حماية أجيالنا من هذا الداء الذي يمثل

خطرًا على كياننا ووجودنا الاعتقادي والأخلاقي والأدبي.

ألسنا متفقين على أن مئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم يجهلون أوليات الإسلام المتفق على فرضيتها وضروريتها، ولا يكادون يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، وهذا الجهل أو الفراغ هو الذي أطمع الغزو التنصيري، والغزو الفكري كليهما، أن ينشرا ظلاليهما بين هذه الشعوب المحسوبة على أمة الإسلام؟

فلنتعاون على تعليم هذه الشعوب ألف باء الإسلام، والأركان الأساسية لهذا الدين من العقائد والعبادات والأخلاق والآداب، التي لا تختلف فيها المذاهب، ولا تتعدد الأقوال، وهذا يستغرق منا جهودًا لا حدود لها، تنسينا ما نتجادل فيه من مسائل هيهات أن ينتهي فيها الخلاف في يوم من الأيام.

ألسنا متفقين على أن المليارات الأربعة من سكان هذه الكرة لا يعرف أكثرهم عن الإسلام شيئًا يذكر، وإذا عرف بعضهم عنه،، عن طريق القراءة أو السماع، فإنما يعرف صورة مبتورة أو مشوهة عن حقيقة هذا الدين، لا تحفّز على النظر فيه، ولا تشوّق إلى استكمال المعرفة به. فهؤلاء لم تبلغهم الدعوة بلوغًا حقيقيًا .

ونحن مسؤولون عن إيصال صورة الدعوات الإسلامية إلى قارات الدنيا الست، وأن نخاطب كل قوم بلسانهم لنبيّن لهم، ونقيم الحجة عليهم، ونزيح التعللات والأعذار عنهم، بدفع الشبهات، ورد المفتريات، وبيان حقائق الإسلام، وكشف أباطيل خصومه.

فلماذا لانتعاون على هذا العمل الكبير، ونجند له من الرجال والأموال ما هو جدير به، وما يعادل أهميته؟ إذا كان اليهود يعملون متعاونين لدينهم حتى أقاموا له دولة في قلب ديارنا العربية والإسلامية، والنصارى يعملون متعاونين لتنصير العالم، بدءًا بالعالم الإسلامي ذاته، فلماذا لا نعمل متعاونين لنشر الإسلام وتعريف العالم به تعريفًا على مستوى الإسلام، ومستوى العصر، ومستوى ما يصنعه الآخرون.

ألسنا متفقين على أن القوى العلمانية تبذل جهودًا مستميتة . يتعاون في ذلك يمينها و يسارها لإيقاف تطبيق الشريعة الإسلامية، وتعويق الدعوة إليها، وتشويه صورتها في المجتمعات الإسلامية، التي تتعالى صيحاتها يومًا بعد يوم للمطالبة بها، وضرورة الاحتكام إليها كما فرض الله تعالى، وأصبح ذلك مطلبًا شعبيًا عامًا اجتمعت عليه الجماهير العريضة في عدد كبير من الأقطار المسلمة؟

فلماذا لا يتعاون الإسلاميون بمختلف مدارسهم وفصائلهم للوقوف صفًا واحدًا أمام هذا التكتل العلماني المؤيد من كل القوى المعادية للإسلام غربية ، وشرقية؟

و أخيرًا :

لماذا لا يتناسى الإسلاميون خلافاتهم الجزئية في المسائل الاجتهادية والأمور الفرعية، لتتضامن جهودهم، وتلتئم صفوفهم، وتتوحد جبهتهم، في مواجهة القوى الضخمة المعادية لهم،

والمتربصة بهم، والكائدة لهم والتي تختلف فيما بينها وتتفق عليهم؟

إن المتفق عليه ليس بهين ولا قليل، وهو يحتاج من الجبهة الإسلامية العريضة إلى جهود وجهود، تشغل كل تفكيرهم، وكل أوقاتهم وكل إمكاناتهم، ومع هذا لا تكفي لملء الفراغ، وتحقيق الآمال، وإصابة الهدف المنشود.

حرام على الجبهة الإسلامية أن تعترك فيما بينها على اللحية والثوب، والنقاب والحجاب، والسدل والقبض، والتأويل والتفويض، وتحريك الإصبع في التشهد، وتدع تلك الثغرات الهائلة دون أن تسدها بكتائب المؤمنين الصادقين.

ـ التسامح في المختلف فيه

وإذا كان التعاون في المتفق عليه واجبًا، فأوجب منه هو التسامح في المختلف فيه.

وبهذا تكتمل القاعدة الذهبية بشقيها، وهي القاعدة التي صاغها العلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا صاحب "مجلة المنار" و "تفسير المنار" : نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

وكان الإمام الشهيد حسن البنا متمسكًا بهذه القاعدة وحريصًا على الالتزام بها فكرًا، وعملاً، حتى حسب كثير من تلامذته وأتباعه أنه واضعها.

وحدة القانون والعبادات

وهبة الزحيلي*

إن وحدة الدين والعقيدة والعبادة من أهم الروابط القائمة بين أفراد الأمة الإسلامية، لتحقيق الوحدة الاندماجية، فإن تعثرت لفترة زمنية ما، فلابد على الأقل من توحيد الاتجاهات والقرارات العامة، والوقوف صفًا واحداً ضد كل الأعداء، فلا يعتدي عليهم مستكبر متعال، ولا يطمع فيهم أو في ثرواتهم طامع جشع، ولا يخترق جبهتهم أو صفهم ماكر خبيث أو مارد مستميت في تقويض صرح الإسلام.

وحدة القانون:

إن أهم ما يحقق ويتفاعل مع عالمية الإسلام وخاتميته وخلوده هو: وحدة النظام أو القانون، أي وحدة أحكام الشريعة الإسلامية المنزلة من عند الله تعالى رب الكون كله، وهذا كفيل ببقاء مقومات العالمية أو الخاتمية والخلود، لأنه إذا تعددت الأنظمة أو القوانين الوضعية المتأثرة باليسار أو اليمين، أو الاشتراكية والرأسمالية، أو الملكية والديمقراطية أو الإقطاعية والجماهيرية، فإنه يصعب في العادة توحيد المحكومين بهذه الأنظمة، لتأثرها

* ـ أستاذ جامعي سوري.

بالأهواء والشهوات، والمصالح الذاتية، والعقول المتفاوتة.

أما شريعة الله تعالى فهي موضوعية محددة، تلتزم معايير الحق والعدل المطلق، ورعاية المصالح العامة للناس جميعًا على اختلاف أحوالهم وفئاتهم وأعراقهم وتوجهاتهم، وتأخذ بهم إلى غد مشرق، ومستقبل زاه، ووضع أفضل، لأنها من لدن رب العالمين، الذي يعلم من خلق، ويعلم مصالحهم، وهو الحَكَم العدل، وهو العليم الخبير، فلا يقصر حكمه لصالح فرد أوفئة معينة دون أخرى، ولاينحاز لجانب على حساب آخر

لذا وجب تطبيق أحكام هذه الشريعة، ولاسيما ثوابتها، في كل زمان ومكان، أما تطبيق غير شرع الله فهو عودة لحكم الطاغوت والشيطان، والجاهلية الوثنية، قال الله تعالى:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون﴾ ، وإذا كان الناس يحرصون على تقدمهم وسعادتهم، فعليهم رفض أي بديل عن شرع الله، قال الله سبحانه:

﴿أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض، طوعًا وكرهًا وإليه يرجعون﴾.

هذا الإيجاب الدائم الثابت في تطبيق الشريعة يؤدي لوحدة التشريع المطبّق في الأمة، من غير أي عناء أو تعثّر، أو تجاف مع الواقع، أو تباين مع التعددية العرقية، أو تباعد الديار، واختلاف الطبائع.

ومن المعلوم أن وحدة التشريع: هو ما تسعى إليه الدول

الحديثة، ولو مع اختلاف القوميات والأجناس والأعراف المتباينة.

وإذا انقسم المسلمون إلى دول إقليمية وحكومات متعددة، بسبب بعد المسافة بين البلاد، أو لصعوبة حكم تلك البلاد بسلطة واحدة، أو لنفور بعض الحكام من حكام آخرين، فإن هذا كله لا يسوغ العدول عن تطبيق أحكام الشريعة الإلهية، أو الأخذ ببعض أحكامها دون بعض، أو هجرها برمتها لأيديولوجيات وفلسفات أخرى، لأن شريعة الله واجبة التطبيق في كل حال ومكان وزمان، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾.

ووحدة الحكم الإلهي تستتبع وحدة الدولة، ووحدة الأمة، ووحدة النظام، وقد حذر القرآن الكريم من تنازع الأمة في القضايا الأساسية العامة، حتى لا تضعف أو تتخاذل أو تذل وتهان أمام أعدائها، فقال الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾.

وقال سبحانه: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيمًا﴾.

وأسباب الدعوة إلى وحدة النظام التشريعي أو القانوني بين المسلمين كثيرة، أهمها ما يلي:

١ -المسلمون أمة واحدة: لقد حقق المسلمون عزة لا تطال، وهيمنة وتفوقًا عظيمًا بالغ الشأن، حينما أدركوا أنهم أمة واحدة، وإخوة في العقيدة الواحدة، وصف واحد متضامن أمام الأعداء، متكافلون فيما بينهم في السراء والضراء، متعاونون على البر والتقوى.

إن وحدتهم في الداخل والخارج جعلتهم خير الأمم، وبوأتهم ليكونوا كذلك، عملاً بقول الله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت، للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾. وذلك لأنهم أيضًا الأمة الوسط الخيار العدول بين الأمم، كما وجههم القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾.

ومنشأ هذه الوحدة: هي أخوة الإيمان والعقيدة التي هي أقوى وأخلد وأدوم من أخوة النسب، ثم تآزر الأخوة وتعاونهم، كما قال النبي (ص): «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».

وقال أيضًا : "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

٢ -وحدة العقيدة : المسلمون أمة ذات عقيدة واحدة، وإيمانهم واحد معروف، فهم يؤمنون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره. والإيمان بالكتب كلها وبخاتمتها القرآن الكريم، يستدعي الالتزام بمضمون القرآن، ويوجب تطبيق شرعه وأحكامه وحرامه وأخلاقه وآدابه وكل ما جاء فيه. ووحدة هذا الكتاب الإلهي من أقوى الأسباب المؤدية إلى وحدة المسلمين، وكونهم صفًا واحدًا فيما بينهم وفي مواجهة أعدائهم.

٣ -وحدة العبادة : العبادة تصدر عن حب وإيمان، ووحدة

العبادة الإسلامية من أهم عوامل الوحدة في الأنظمة والمعاملات، فإذا ما اتحد المسلمون في المسجد أو في الصوم أو في الحج أو في الزكاة، اتحدوا في المجتمع والسوق والإدارة والشركة وكل أنماط السلوك والحياة الاجتماعية، لأن المسلم الداعي والمخلص هو: الذي لا يصدر عنه ما يناقض عقيدته أو عبادته، وتكون ممارساته لشؤون المعاملات والتصرفات منسجمة مع مقتضيات العقيدة والعبادة، وإلا لم يكن مسلمًا في ميزان أحد صادق الاعتقاد والتعبد والاتجاه نحو رب واحد.

٤ -وحدة اللغة : إن عبادة المسلم لا تصح إلا بلغة القرآن العربية، فكل مسلم يعرف اللغة العربية، ويأنس بمدلولاتها، ويتذوق أساليبها، واللغة عامل قوي في توحيد الشعوب والأمم، ويتقوى هذا العامل ويتنامى مفعوله إذا ارتبط بالدين والاعتقاد والتشريع، فالعقيدة أساس، واللغة العربية تعبير عن مكنون العقيدة، فتتوحد الطباع، ويتحد الكلام، وتتفق العواطف والمشاعر، وتكون اللغة العربية هي لغة الخطاب والكتابة، ويسهل حينئذ توحيد العمل، وتدوين الأسرار، وبعث المراسلات، وعقد المعاهدات بين المسلمين وغيرهم، ويتجه المسلمون حينئذ إلى توحيد جهودهم وطاقاتهم، وتحقيق وحدتهم السياسية والاجتماعية، والاجتهاد في ضوء مفاهيم لغة العرب، واستنباط الأحكام المناسبة، كما نبّه إليه القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى :

﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾. ﴿كتاب فُصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون﴾.

٥ -وحدة الثقافة: الثقافة : هي المقومات المتصلة بالسلوك الإنساني، وهي تشمل من الناحية النظرية: العقيدة والنفس والاجتماع، والأخلاق، والتربية، والآداب والفن، والتاريخ، وفلسفة الاقتصاد والمال. وهي من الوجهة العملية: ممارسة وسلوك، وهي غاية، والعلم وسيلة.

وبما أن الثقافة الإسلامية هي التي يمكن وصفها بأنها إنسانية، لشمولها وتوازنها، ومجيئها موافقة للفطرة أو الطبيعة الذاتية، وتجاوزها كل عيوب العنصرية القومية الضيقة والتعصب الديني، فهي من أقوى دواعي توحيد الفكر والسلوك، وصهر الأمة في ممارسة واحدة، والسعي لغايات واحدة، والعيش في ظل تشريع واحد.

إن وحدة الثقافة تدفع المثقفين بها إلى الانضمام تحت لواء راية واحدة، هي راية التشريع الذي يحدد معالم الثقافة الإسلامية الفردية في منزعها وغايتها، وغير المسلمين الذين يتعايشون مع المسلمين في ظل دولة واحدة، يلتقون مع المسلمين في أصول الإيمان بالله واليوم الآخر والكتاب الإلهي، وينضمون إليهم في دائرة الإنتماء التاريخي والثقافي، فتتوحد الأمة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاد يًا وتشريعيًا.

٦ -وحدة المصالح والتاريخ والمصير: إن المسلمين مع من يعيش

في بلادهم لهم مصالح متحدة وآمال وآلام واحدة ومصير مشترك، وتاريخ واحد، وهذا يوجب تكوينهم وحدة دولية وقانونية، وما الدولة والقانون إلا للأكثرية، ولكن في إطار الحق والعدل والمساواة التي نظمها وفرضها القرآن الكريم، وإذا اتحدت الأمة عزّ جانبها، وهابها أعداؤها، وتقدمت في مختلف وسائل الحياة، ولا سيما إيجاد نهضة صناعية قوية.

٧ -وحدة المصدر التشريعي: تتعدد القوانين الوضعية وتتغاير أحكامها، بتعدد وتغاير عقول واضعيها، وبمقدار تأثرهم بفلسفة معينة، ونظرية محددة. أما التشريع الإسلامي فمصدره واحد، وهو الله تعالى، بما أنزل من أوامر ونواه، والاجتهاد كاشف مظهر لحكم الله تعالى، لا منشئ ولا مبدع للأحكام الشرعية.

ووحدة المصدر التشريعي الإسلامي تجعل التشريع واحدًا بالنسبة لجميع المسلمين في العالم. وغير المسلمين المقيمين في دار الإسلام ملزمون بأحكام هذا التشريع، بحكم سيادة الشريعة في دار الإسلام، وبمقتضى المعاهدة التي تمّت بين المسلمين وغيرهم للإقامة في دار الإسلام على الدوام، ومن بنود هذه المعاهدة الالتزام بأحكام الشريعة.

وإذا تعددت الاجتهادات الفرعية التي مجالها في الفروع لا في الأصول، فإن القانون الموحد الذي يختار بعض الاجتهادات، يؤدي إلى وحدة تشريعية أيضًا، لأن الاختيار لرأي ما نابع من مراعاة المصلحة العامة، والتجاوب مع مقتضيات العصر والزمان.

والمطلوب من رعايا الدولة الإسلامية الواحدة، مهما تناءت بهم الديار أن يكون ديدنهم الإخلاص لرب العالمين، ولإمام المسلمين الذي لا يأمر إلا بالحق والخير والمعروف، فيسهل تقبّلهم نظام الوحدة أو الاتحاد، من أجل الحفاظ على وجودهم واستقلالهم، والتخلّص من أي تبعية لدولة أخرى شرقية أو غربية، لا تبغي من تدخلها في شؤون المسلمين إلا استنزاف خيراتهم، وإبعادهم عن شريعة ربهم، وإبقاءهم أذلّة تابعين مهانين، يسيرون في فلك مصالح المستعمرين ومخططاتهم الرهيبة، وينطبق عليهم حنيئذ المثل العربي: (إنك لا تجني من الشوك العنب).

والخلاصة : إن الإسلام يصرّ على أتباعه بوجود النظام أو القانون الموحد، واختصر عليهم الخوض في تجارب متعددة، ونلاحظ الآن أن العالم يتجه عبر النظام القانوني الوضعي إلى تحقيق مطمح وحدة القانون التي تؤدي إلى وحدة الشعوب وتقاربها وتفاعلها، وممارسة معاملاتها على منهج واحد، وقاعدة واحدة، ويكون الخير بذلك الاتحاد للجميع.

وحدة العبادات :

لا تقتصر العبادات على الفروض الأربعة المفروضة وهي الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة، وإنما تشمل مقدماتها وهي الطهارة من النجاسات والقاذورات، فإنها واجبة حفاظًا على صحة الإنسان، وإبعاده عن كل ما يلوث البدن والثياب والمكان، وذلك

بالماء المطهر ووسائل التنظيف الأخرى. وتشمل العبادة أيضا كل ما فيه تعظيم الله تعالى من أمور الحظر والإباحة والإيمان والنذور والكفارات، والأضاحي والعقيقة والذبائح والصيد ونحوها.

وبما أن هذه العبادات والشعائر كصلاة الجمعة والجماعة والأذان مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالله عز وجل، ويقصد بها الإخلاص لوجه الله تعالى، وذكر الله وطاعته وإرضاؤه، فإنها واحدة في حقيقتها ومظهرها، ومبناها ومقاصدها، وجعلها وسيلة لتهذيب النفس الإنسانية، ونقاء المجتمع، والتعويد على فعل الخير وترك الشر والفواحش والمنكرات، وإطلاق حرية العبادة لا لأتباع الإسلام وحدهم، وإنما لأصحاب الديانات المختلفة، لتظهر مزية الإسلام، وقد أذن الإسلام لأتباعه أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع، ومن أجل ضمان حرية العبادة لجميع المتدينين، فيتحقق بهذا نظام عالمي حر، يستطيع الكل أن يعيشوا في ظله آمنين، متمتعين بحريتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين .

ويدرك كل إنسان هذه الوحدة الإسلامية الكبرى، أنّى اتّجه في المشارق والمغارب، فالمسلم يعرف المسلم بمناسك العبادة، وبمظهر العبادة ووسائلها أو مقدماتها من طهارة وأذان وإقامة، وكيفية الأداء، والذكر والاستغفار والدعاء باللغة العربية في كل مكان.

إن الصلاة سواء أأديت منفردة أم بجماعة تعبير حي واقعي ناطق عن وحدة المسلمين، أيًّا كان مذهب المصلي من مذاهب أهل السنة أو الشيعة والإباضية أو غيرهم. وتنظيم صفوف الصلاة كالملائكة دليل على مساواة المصلين.

والصوم في غضون شهر كامل مظهر ميداني رائع لوحدة المسلمين في كل مكان، سواء أفي النهار أم الليل، تعلوهم البهجة ويغمرهم الفرح، ويشعرهم بالأخوة الإيمانية تملأ قلوبهم، وتفيض مشاعرهم حمدًا لله وشكرًا على نعمة الإسلام.

والحج سبيل التعارف الإسلامي، وذلك المؤتمر الأكبر الذي يلتقي فيه المسلمون على صعيد واحد، ويطوفون حول بيت الله الحرام، ويصلون لرب البيت، وتكون الكعبة المشرفة رمز وحدتهم في صلاتهم وحجهم وأذكارهم، لا أنهم يعظمون الحجارة أو الجدران، وإنما يقاومون مختلف أشكال الوثنية، فهل بعد هذا يأتي تفكير سطحي لبعض الأعداء، يتهمون فيه الإسلام بالوثنية؟ حيث ينظرون إلى الظاهر، ويتعامون عن الحقيقة والإيمان العميق في نفس كل مسلم، ولو كان أميًا عاميًا بأنه يتجه بطوافه وصلاته نحو رب البيت، وإنما البيت الحرام رمز لوحدة الصف، وجمع المسلمين، كما يجتمع المتحدثون حول مركز معين أو نقطة معينة، أو طاولة مستديرة أو مستطيلة أو مربعة مثلاً، فهل هؤلاء الجالسون المتفاوضون يقدسون تلك الطاولة أو يعبدونها؟؟

والزكاة سبيل التكافل الاجتماعي، وإن تعلّقت بعباد الله لإغنائهم، ولتطهير مالهم من شوائب الشبهات والحرام، بل ولتحقيق التقريب بين الأغنياء والفقراء أو توحيدهم في سبل المعاش.

القسم الثالث : الذنب يحجب الدعاء

سيد هاشم الرسولي المحلاتي *

• الأخلاق هدف الإسلام الكبير: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وهو الساحة الكبيرة الهامة التي يحتاج إليها المسلمون أيّما احتياج، وهو الساحة التي تجمع المذاهب الإسلامية على صعيدها، وتوحّد بين قلوبهم وأعمالهم وتوجههم إلى مثلهم الأعلى المطلق الكبير، وهو الله سبحانه. وننشر سلسلة مقالات أخلاقية في مجال (الذنب) أي في مجال السقوط في مطبّات طريق الإنسان في الحياة، وسبل الخروج من هذا السقوط.

من آثار الذنب:

في المرحلة الأولى – سلب توفيق الدعاء.

وفي المرحلة الثانية – عدم استجابته.

هذه الحقيقة وردت على لسان عظماء الإسلام في روايات كثيرة، وقبل ان نذكر هذه الروايات نوضح باختصار مفهوم الدعاء، وآثاره على الروح والجسم، وأهميته في جميع شؤون حياة الإنسان، كي يتضح أكثر معنى الروايات الإسلامية في هذا الحقل، وتزول كل شبهة بشأن سبب عدم استجابة الدعاء.

---

* – عالم دين إيراني.

ماهو الدعاء؟

الدعاء في اللغة النداء، ودعاء العبد ربه أن يناديه لطلب، أو لقربة.

قال سبحانه: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾. (الكهف/ ٢٨).

وقال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(النمل/٤٢).

وقال سبحانه: .﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. (الاعراف/٥٥).

وفي هذه الآيات وغيرها ورد الدعاء بمعنى النداء، وهكذا في الروايات، وليس معناه «الطلب» كما يتبادر إلى الأذهان اليوم.

ولعل الشريعة أقرّت الدعاء من أجل ان يرتبط العبد بربه ويستمد منه في كل الأحوال، ويذكره دائمًا، وهذا نوع من العبادة. ورسول الله(ص) يقول: «الدعاء مخ العبادة».

والقرآن الكريم سمى الدعاء عبادة:

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾. (المؤمن/ ٦٠).

والعبادة في الآية هي الدعاء كما ورد في تفسيرها عن رسول الله(ص)، وعن الإمام علي بن الحسين(ع).

الدعاء سلاح المؤمن

الدعاء – إذن – نوع من العبادة والارتباط بين العبد وربه، وهذا الارتباط له الأثر الكبير في بث الطمأنينة في نفس الإنسان، وأولئك المحرومون من هذه العبادة فاقدون لسند عظيم وعون كبير في مواجهة المشاكل. فهم كمن هو في الهيجا بدون سلاح.

يقول رسول الله(ص): «الدعاء سلاح المؤمن».

ويقول أمير المؤمنين علي(ع): «الدعاء تُرس المؤمن».

ويقول الإمام علي بن موسى الرضا(ع) لأصحابه: «عليكم بسلاح الأنبياء» فقيل: وما سلاح الأنبياء؟ قال: «الدعاء». وروي عن رسول الله(ص) قوله: «ألا أدلكم على سلاح ينجيكم من عدوّكم ويدرّ رزقكم؟« قالوا: نعم، قال: «تدعون بالليل والنهار فإن سلاح المؤمن الدعاء».

وعن علي(ع): «ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء».

لو أمعنا النظر في هذه الأحاديث وأمثالها، لألفينا أن الدعاء له أثر نفسي عظيم، سواء أطلب الإنسان في دعائه من الله شيئًا أم لم يطلب.

وهذه حقيقة فهمها علماء النفس اليوم بوضوح وكتبوا حولها المقالات والبحوث القائمة على أساس الإحصائيات.

لقد دلت هذه الإحصائيات على أن الذين يعيشون عالم الاتصال بالله قلَّما يعتريهم اليأس والسأم. وقلَّما ينهزمون أمام

الحوادث المؤلمة، وقلما يفقدون الآمال في المستقبل.

هذه الحقيقة قررها الإمام محمد بن علي الباقر(ع) في حديث مخاطبًا أحد أصحابه: «ألا أخبرك بما فيه شفاء من كل داء حتى السأم؟» قال: بلى قال: «الدعاء».

الدعاء في جميع الأحوال

لم يشرِّع الدعاء لمواقع الشدة والضنك كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس، والله سبحانه ذمّ أولئك الذين لا يدعون ربهم إلا في حالات الضرِّ، قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (يونس/ ١٠).

ويقول سبحانه في موضع آخر: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾. (فصلت/ ٥١).

وهذا المعنى ورد أيضا في آيات أخر من سورة يونس، والروم، ولقمان، والعنكبوت.

وفي الروايات حث أئمة الدين على الدعاء في كل حال، في الشدة والرخاء، وروي أن الداعي في وقت الشدة فقط لا يستجاب له دعاء:

«عن أبي عبد الله(ع) أنه قال: مَنْ تَقَدَم في الدعاء استُجيب له إذا نزل به البلاء، وقالت الملائكة صوت معروف ولم يُحجَب عن السماء، ومن لم يتقدم في الدعاء لم يُستجب له إذا نزل البلاء، وقالت الملائكة: أنّ ذا صوت لا نعرفه».

وفي رواية أخرى: «قيل: أين كنت قبل اليوم».

وعنه (ع) أيضا: «من سرّهُ أن يستجاب له في الشدة فليكثر الدعاء في الرخاء».

وعن الإمام موسى بن جعفر(ع): «كان علي بن الحسين عليهما السلام، يقول: الدعاء بعدما ينزل البلاء لا ينفع».

وفي الحديث القدسي:

«أوحى الله إلى داود صلوات الله عليه: اذكرني في أيام سرائك حتى أستجيب لك في أيام ضرّائك».

مما تقدم نفهم واحدًا من أسباب عدم استجابة الدعاء، فالهدف من كل هذا التأكيد على الدعاء هو توثيق العلاقة بين العبد وربه، كي يكون العبد قويًا واثقًا متّكلا على الله حين تواجهه الشدائد وتلاقيه الصعاب، وكي لا يعتريه الضعف والوهن والهزيمة.

الذنب يقطع ارتباط العبد بربه

بعد أن اتضحت إلى حدّ ما أهمية الدعاء والارتباط بالله

سبحانه في حياة الإنسان وتكييف شخصيته نعود إلى أصل بحثنا فنقول:

استناداً إلى ما ورد من أحاديث وروايات عن أئمة الدين، فإن الذنب هو من العوامل المؤثرة الخطرة القادرة على قطع ارتباطنا بالله، وعلى سلب توفيق الدعاء منا، وحرماننا من نِعَمِه وعطاياه.

هذه الحقيقة عبّرت عنها الأحاديث بأساليب متعددة. منها عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) أنه قال:

«كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتى تغلب عليه فتصير أعلاه أسفله».

وعنه أيضا قال:

«إذا أذنب الرجل خرجت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً».

وفي حديث آخر قال: «أن الله أوحى إلى داود: إنّ أدنى ما أنا صانع بعبد غير عامل بعلمه من سبعين عقوبة باطنية أن أنزع من قلبه حلاوة ذكري».

وجاء رجل إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين إني قد حرمت الصلاة بالليل قال: فقال أمير المؤمنين(ع): «أنت رجل قد قيّدتك ذنوبك».

وعن الصادق (ع) أيضا: «إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم».

الذنب يمنع استجابة الدعاء

وهنا نبحث عن العوامل التي تحول دون استجابة الدعاء بعد أن يحصل الإنسان على توفيق الدعاء.

في دعاء «كميل» عبارات ترتبط بموضوعنا، مثل: «اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء».

ومثل: «فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي».

سؤال موجه إلى أمير المؤمنين علي(ع)

خطب علي(ع) الناس يوم الجمعة فقال في نهاية خطبته:

«أيها الناس سبع مصائب نعوذ بالله منها: عالم زلَّ، وعابد ملَّ، ومؤمن خلَّ، ومؤتمن غلّ، وغني أقلَّ، وعزيز ذلّ، وفقير اعتلّ».

فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين لم لاتستجاب دعواتنا وقد قال الله سبحانه: «ادعوني استجب لكم»؟!

أجاب الإمام:

«إن قلوبكم خانت بمثاني خصال:

أولها: إنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه كما أوجب عليكم، فما أغنت عنكم معرفتكم شيئا.

والثانية: إنكم آمنتم برسوله ثم خالفتم سنّته وأمتّم شريعته، فأين ثمرة إيمانكم؟!

والثالثة: إنكم قرأتم كتابه المنزل عليكم فلم تعملوا به، وقلتم سمعنا وأطعنا ثم خالفتم!

والرابعة: إنكم قلتم تخافون من النار، وأنتم في كل وقت تقدمون إليها بمعاصيكم، فأين خوفكم؟!

والسادسة: إنكم أكلتم نعمة المولى فلم تشكروا عليها!

والسابعة: إن الله أمركم بعداوة الشيطان، وقال: إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوًا، فعاديتموه بلاقول ووالیتموه بلا مخالفة.

والثامنة: إنكم جعلتم عيوب الناس نصب أعينكم وعيوبكم وراء ظهروكم، تلومون من أنتم أحق باللوم منه.

فأي دعاء يستجاب لكم مع هذا وقد سددتم أبوابه وطرقه؟ فاتقوا الله وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا سرائركم وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فيستجيب لكم دعاءكم».

كيف يتجه المذنب إلى ربه؟

علّمنا الإسلام ان ندعو الله بالاعتراف أولاً بذنوبنا، ونستغفر الله منها، ونطلب منه العفو، ثم نقدم بين يديه حاجاتنا.

تعاليم الإمام الصادق(ع) في هذا المجال

جاء رجل إلى الإمام الصادق(ع) فقال له: آيتان في كتاب الله لا أدري ما تأويلهما.

قال الإمام : «وماهما؟».

قال: قوله تعالى: ﴿أدعوني استجب لكم﴾ ثم أدعو، فلا أرى الإجابة.

قال له الإمام: «أفترى الله تبارك وتعالى أخلف وعده؟!»

قال: لا، قال: «الآية الأخرى؟!».

قال الرجل: قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فأنفق فلا أرى خلفاً.

قال: «أفترى الله أخلف وعده؟!».

قال: لا . قال: «فَلِمَ؟» قال: لا أدري!

قال الإمام الصادق(ع): «لكني أخبرك إن شاء الله تعالى، أما إنكم لو أطعتموه فيما أمركم به ثم دعوتموه لأجابكم لكنكم تخالفونه وتعصونه فلا يجيبكم.

واما قولكم تنفقون فلا ترون خلفاً، أما إنكم لو كسبتم المال من حلّه ثم أنفقتموه في حقّه، لم ينفق رجل درهما إلا أخلفه الله عليه.

ولو دعوتموه من جهة الدعاء لأجابكم وإن كنتم عاصين».

قال الرجل: وما جهة الدعاء؟

قال: الإمام: «إذا أديت الفريضة مجّدت الله وعظّمته، وتمدحه بكل ما تقدر عليه وتصلّي على النبي(ص)، وتجتهد في الصلاة عليه، تشهد له بتبليغ الرسالة، وتصلّي على أئمة الهدى(ع)، تذكر

بعد التحميد لله والثناء عليه، والصلاة على النبي(ص) ما أبلاك وأولاك، وتذكر نعمه عندك وعليك، وما صنع بك، فتحمده، وتشكره على ذلك، ثم تعترف بذنوبك ذنب ذنب، وتقرّ بها أوبما ذكرت منها، وتجمل ما خفي عليكم منها، فتتوب إلى الله من جميع معاصيك، وأنت تنوي أن لا تعود، وتستغفر منها بندامة وصدق نية وخوف ورجاء ويكون من قولك: اللهم إني اعتذر إليك من ذنوبي وأستغفرك وأتوب إليك، فأعني على طاعتك ، ووفّقني لما أوجبت عليّ من كل ما يرضيك, فاني لم أر أحدًا بلغ شيئًا من طاعتك إلا بنعمتك عليه قبل طاعتك، فأنعم عليّ بنعمة أنال بها رضوانك والجنة. ثم تسأل بعد ذلك حاجتك فإني أرجو أن لا يخيبك إن شاء الله تعالى».

وفي هذا المجال وردت روايات أخرى تؤمّل المذنبين كي لا يتسرب اليأس إلى نفس المذنب ولا ينصرف عن الدعاء.

مما تقدم نفهم ان أحد موانع طريق استجابة الدعاء الذنب، ونذكر هنا بعض ألوان الذنوب التي تحول دون استجابة الدعاء:

عن الإمام علي بن الحسين السجاد (عليهما السلام) انه قال: «والذنوب التي تردّ الدعاء وتظلم الهواء: عقوق الوالدين».

وعنه (ع) أيضا:

«والذنوب التي تردّ الدعاء: سوء النية وخبث السريرة، والنفاق مع الإخوان، وترك التصديق بالإجابة، وتأخير الصلوات المفروضات

حتى تذهب أوقاتها، وترك التقرب إلى الله عزوجل بالبر والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول».

والذنوب عامة لها أثر في منع استجابة الدعاء كما مرّ في الروايات السابقة.

الشروط الأخرى لاستجابة الدعاء

من أجل أن لا يتصور أحد أن المانع الوحيد لاستجابة الدعاء هو الذنب، ولنجيب على سؤال من يقول: لماذا لا تستجاب أحيانا دعوة أولياء الله والمعصومين، أو تتأخر استجابتها؟ نتحدث هنا باختصار عن الشروط الأخرى لاستجابة الدعاء ذاكرين بعض الآيات والروايات في هذا المجال، ولا نستطيع هنا أن نفصل الحديث في هذا الموضوع لأنه خارج عن بحثنا، ولأن التفصيل فيه يحتاج إلى كتاب مستقل.

١ – ان يكون الدعاء صادرًا من أعماق الإنسان، لا أن يكون مجرد لقلقة لسان. أي أن يكون كل وجود الإنسان طلبًا من الله وتوجهًا إليه. وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النحل/ ٦٢).

فهذا المضطر يتجه بالدعاء عادة بكل وجوده ويصدر الدعاء من أعماق قلبه.

ونستطيع أن نفهم هذا المعنى أيضا من قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة/ ١٨٦)

وعبارة «إذا دعان» تفهم الدعوة الحقيقية كما يقول المفسرون. كقولنا: أكرم العالم إذا كان عالمًا. أي إذا كان عالمًا واقعيًا.

وتشير الروايات أيضا إلى هذه الحقيقة، ففي حديث عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع): «إن الله لا يستجيب دعاءً بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك ثم استيقن الإجابة».

وعنه أيضا: «اذا دعوت فأقبل بقلبك فظنّ حاجتك بالباب».

وقد عبّر الإمام الصادق(ع) عن هذا المفهوم بأسلوب آخر فقال: «إذا أراد أحدكم ان لا يسأل ربه شيئًا إلا أعطاه فلييأس من الناس كلهم ولا يكون له رجاء إلا من عند الله، فإذا علم ذلك من قلبه لم يسأله شيئًا إلا أعطاه».

٢-الدعاء لا يعوّض عن العمل

إذا كان بالإمكان تحقيق أمر من الأمور بالعمل، فلا يجوز الاكتفاء بالدعاء، إذ إن الدعاء لا يعوض عن العمل. ليس الدعاء أن نجلس متقاعسين، ثم نرفع عقيرتنا بالدعاء أن ينجز الله أعمالنا!

قال رسول الله(ص):

«الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر».

ذلك لأن الله أبى إلا أن تجري الأمور بأسبابها وعللها، ولا يجوز أن نأمل من الدعاء نتيجة تخالف سنن الكون.

لابد من العمل أولا، ثم الدعاء. لابد من حرث الأرض ونثر البذور وسقيها ثم بعد ذلك الدعاء.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع): «أربعة لا يستجاب لهم دعاء:

- رجل جالس في بيته يقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالطلب؟

-ورجل كانت له امرأة فدعا عليها فيقول: ألم أجعل أمرها بيدك؟

- ورجل كان له مال فأفسده، فيقول: يارب ارزقني، فيقول له: ألم آمرك بالاقتصاد؟ ألم آمرك بالإصلاح؟ ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾.

- ورجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة فيقول: ألم آمرك بالشهادة؟».

سيرة رسول الله وأولياء الله الصالحين تعلّمنا أن الدعاء لا يغني عن العمل. فرسول الله(ص) في غزواته كان يفعل ما يفعله كل قائد محنّك خبير في الحروب من تنظيم لقواته وانتخاب للمكان والزمان المناسبين للحرب، وتجهيز لأفراده. كل ذلك يفعله، ثم يرفع يديه متضرعًا إلى الله سبحانه أن ينصر المسلمين.

الإخلاص في الدعاء

من شروط استجابة الدعاء هو الاتجاه إلى الله بقلب مخلص مؤمن واثق بالإجابة. من هنا جاء الحث على الدعاء بعد الصلاة، لأن الصلاة تمهّد القلب للخلوص في الدعاء.

قال رسول الله(ص):

«من أدى فريضة فله عند الله دعوة مستجابة».

وعن الإمام الصادق(ع): «إذا رقّ أحدكم فليدع، فإن القلب لا يرقّ حتى يخلص».

وعن الرسول الله(ص): «اغتنموا الدعاء عند الرقّة فإنها رحمة».

وعن أبي الله الصادق(ع): «إذا دعوت فظنّ حاجتك بالباب».

ولعل هذا الحديث عن الرسول (ص) يشير إلى هذا المعنى إذ يقول:

«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده».

وفي روايات أخر أضاف: دعوة الصائم، والمحارب في سبيل الله، والمريض والحاج. ولعل الجامع بين كل هؤلاء هو ما ذكرناه من خلوص القلب وصفاء النفس.

ملاحظات حول الدعاء

١ -قد تتوفر في نظرنا كل شروط الدعاء، لكن استجابته ليست من مصلحتنا ولا من مصلحة الآخرين. لأننا لا نحيط بما يضرنا وما ينفعنا على الصعيد الفردي والاجتماعي. فقد نُصرّ على تحقيق أمر لو انكشفت لنا عواقبه ما طلبناه:

﴿عَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/ ٢١٦).

٢- قد نطلب شيئًا ونسأل الله تحقيقه، ويتضرّع آخر إلى الله طالبًا عدم تحقيقه.

جاء في حديث عن الإمام الصادق(ع): «كان في بني إسرائيل رجل له ابنتان، فزوّج إحداهما من رجل زرّاع، وزوج الأخرى من رجل فخّار، ثم زارهما فبدأ بامرأة الزراع، فقال لها: كيف حالكم؟ فقالت: قد زرع زوجي زرعًا كثيرًا، فإن أرسل الله السماء فنحن أحسن بني إسرائيل حالا. ثم مضى إلى امرأة الفخّار فقال لها: كيف حالكم؟ فقالت قد عمل زوجي فخارًا كثيرًا، فإن أمسكت السماء فنحن أحسن بني اسرائيل حالا، فانصرف وهو يقول: اللهم أنت لهما، وكذلك نحن».

٣-قد ندعو ويستجاب الدعاء، ولكن تحققه في الواقع الخارجي يتأخر لمصلحة من المصالح، خلافًا لرغبتنا في الاستعجال. وقد يحدث هذا للأنبياء كما في قصة موسى وهارون إذ تضرعا إلى الله،

وقال موسى:

﴿.. رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

ثم قال لهما الله: ﴿.. قد أجيبت دعوتكما﴾.

وعن الإمام الصادق(ع): «إن المدة بين هذه الاستجابة وغرق فرعون أربعون عامًا!».

وفي بعض الروايات إن المدة تستغرق عشرين عامًا أو أكثر أو أقل.

خلاصة القسم الثالث

١ –الذنب –في المرحلة الأولى – يحرم الإنسان من أعظم نعم الحياة.. من نعمة الدعاء والتضرع والارتباط بالله.

٢–الدعاء والارتباط بالله يصعّد مقاومة الإنسان وصموده أمام الهزات والحوادث.

٣–الذنب –في المرحلة الثانية –يمنع استجابة الدعاء.

٤–على المذنب أن يستغفر أولاً، ثم يدعو ليستجاب دعاؤه.

٥–الذنوب التي تمنع استجابة الدعاء هي بالدرجة الأولى: عقوق الوالدين، والخبث، والنفاق، وعدم الإيمان باستجابة الدعاء، وتأخير الصلاة عن أوقاتها، والبذاء والفحش في القول.

٦-طهارة النفس ليست وحدها شرطًا لاستجابة الدعاء، بل هناك شروط أخرى.

٧-قد تتوفر جميع الشروط ولا يستجاب الدعاء، ولكن لا يجوز اليأس من الدعاء في أي وقت من الأوقات.

٨-الدعاء على أي حال له تأثيره.

لنتعاون على تعليم هذه الشعوب ألف باء الإسلام، والأركان الأساسية لهذا الدين من العقائد والعبادات والأخلاق والآداب، التي لا تختلف فيها المذاهب، ولا تتعدد الأقوال، وهذا يستغرق منا جهودًا لا حدود لها، تنسينا ما نتجادل فيه من مسائل هيهات أن ينتهي فيها الخلاف في يوم من الأيام...

ونحن مسؤولون عن إيصال صورة الدعوات الإسلامية إلى قارات الدنيا الست، وأن نخاطب كل قوم بلسانهم لنبيّن لهم، ونقيم الحجة عليهم، ونزيح التعللات والأعذار عنهم، بدفع الشبهات، ورد المفتريات، وبيان حقائق الإسلام، وكشف أباطيل خصومه.

يوسف القرضاوي

الحركة العلميّة
في الأندلس

• الحديث عن الإنتاج الثقافي الأندلسي يثير في النفس الأسى على ضياع الأندلس. وهذا الأسى ليس على أرض فُقدت، أو دولة أُزيلت، بل على فرصة عظيمة قد ضاعت، فرصة اللقاء بين الحضارتين الأوربية والإسلامية. لعلّ كثيراً من المآسي التي حلّت بالعالم خلال القرون الأخيرة ما كانت لتحدث لو أن التفاعل الحضاري في الأندلس قد تواصل. على أي حال نفتح هذه الصفحة من ثقافة المسلمين في الأندلس، على أمل أن ينفتح حوار جاد بين العالم الإسلامي وأوربا عبر اسبانيا التي ترث هذه الثقافة نظريًا، وهذا أثر أندلسي أدبي يرتبط بالحسين بن علي(ع).

بدأت الحركة العلمية والتعليمية منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس، فطلب العلم فريضة، وتعلّم القرآن وأحكام الدين من أولى واجبات المسلم. لذلك انتشرت ظاهرة الكتاتيب في المدن الأندلسية بعد الفتح، وفي كل كتّاب مؤدّب يتقاضى أجرًا على تعليم الناشئة. ثم شاعت ظاهرة رواية الشعر وعلوم اللغة العربية. وبعد أن استقرت الأمور في الأندلس على عهد الخلافة الأموية

اتجه كثير من الأندلسيين إلى المشرق، لينهلوا من علومهم. وبالتدريج أصبح للأندلسيين مدارس خاصة في العلوم الدينية، والعلوم اللغوية، والعلوم العقلية، وشاركوا المشارقة في العلوم الطبيعية والتاريخ. وسنقف باختصار عند هذه العلوم في الأندلس.

العلوم الدينية

تطوّر تعليمُ قراءة القرآن إلى تعلّم القراءات المختلفة لكتاب الله العزيز، واهتمّ القرّاء بضبط هذه القراءات والتصنيف فيها والنظم بها ليسهل تعلّمها.

من أهم المؤلفين الأندلسيين في القراءات أبو عمرو الداني، عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٤٤٤هـ وله كتاب معروف هو التيسير في القراءات السبع وكتب أخرى في قراءة «وَرْش» ونقط المصاحف.

وأهم قراء الأندلس، بعد الداني، الإمام الشاطبي الضرير، المتوفى في القاهرة سنة ٥٩٠هـ. وله منظومة: حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات في ١١٧٣ بيتًا، وأصبحت متنًا للقراء يحفظونها ويشرحونها على مرّ العصور.

في التفسير برز مفسرون كبار من أمثال القاضي ابن عطية، أبي محمد عبدالحق بن غالب المتوفى سنة ٥٤٢٠هـ وتفسيره المحرر الوجيز في التفسير في ١٥ جزءًا لخّص ما تقدمه من التفسير

بالمأثور، وتحرّى الأقرب إلى الصحّة، وهو مطبوع ومحقق ومتداول.

من المفسرين الأندلسيين القرطبي، محمد بن أحمد، المتوفى سنة ٦٧١هـ وله التفسير المشهور المسمى جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن وهو في عشرين مجلّدًا.

ومنهم أيضًا أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٥٤هـ ، وله تفسير البحر المحيط، وهو من كبار النحاة، ويكثر في تفسيره الاهتمام بنحو القرآن، وهو مطبوع وعلى هامشه تفسير النهر المادّ من البحر لأبي حيّان نفسه، وكتاب الدرّ اللقيط من البحر المحيط لتاج الدين الحنفي النحوي تلميذ أبي حيان.

في الفقه: كان في الأندلس نشاط خصب، فقد حمل الشاميون في بداية الفتح فقه الإمام الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ . ثم تحوّلوا إلى الفقه المالكي، وقيل إنّ الخلافة الأموية هي التي شجّعت على انتشار مذهب مالك بن أنس إمام المدينة المتوفى سنة ١٧٩، في الأندلس، لما كان بين مالك والعباسيين من جفوة بسبب موقفه المناصر لثورة محمد النفس الزكية.

ومن إبداع الأندلسيين في حقل الفقه أنهم اتخذوا فقه مالك أساسًا لمدرستهم لكنهم طوّروا الفقه المالكي وأخذوا بآراء الفقهاء الآخرين أيضًا من مثل الليث بن سعد.

والليث بن سعد هذا هو فقيه مصر، ومن أصل إيراني. قال فيه الشافعي: «سعد أفقه من مالك إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به،

ويقصد أن المصريين لم يهتمّوا بنشر فقهه.

وألّف الأندلسيون كتبًا وموسوعات ومنظومات كثيرة في الفقه المالكي وفي شرح الموطأ للإمام مالك، لا مجال لذكرها.

جدير بالذكر أن المذهب الظاهري في الفقه لداود بن خلف الظاهري المتوفى ببغداد سنة ٢٧٠هـ قد دخل الأندلس أيضًا، وقويت شوكته على يد ابن حزم الظاهري، علي بن أحمد، وهذا المذهب يرفض أصول الفقه ويكتفي بالقرآن والسنّة.

ويرى شوقي ضيف أنّ النظام القضائي الذي يقوم على الفقه قد أدخل فيه الأندلسيون تطوّرات هامة، ويعرض ثلاثة منها هي:

١. تشكيل لجنة استشارية من الفقهاء، يرجع إليها القضاة في القضايا المشكلة.

٢ - إنشاء هيئة محامين من الفقهاء، يستطيع أصحاب الدعاوي والمتهمين أن يختاروا من ينوب عنهم في المرافعة أمام القاضي، على نحو ما هو معروف اليوم.

٣ - وضع كتب باسم الوثائق، يضعها كبار الفقهاء، وفيها نصوص لعقود في مختلف الميادين التي يحتاجها الناس في حياتهم، وهي تعكس جانبًا مهمًا من حياة الناس الاجتماعية في الأندلس.

علوم اللغة العربيّة

من الطبيعي أن تنشط علوم العربية لغة ونحواً وبلاغة، مع الاهتمام بالعلوم الإسلاميّة. ولذلك دخلت كتب النحويين البصريين والكوفيين والبغداديين ومعاجم اللغويين الشرقيين إلى الأندلس منذ الفتح الإسلامي.

في حقل علوم اللغة: أهمّ حركة لغوية ظهرت في الأندلس كانت على يد أبي علي القالي اللغوي الكبير، دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ . ونشط في التأليف والتدريس بقرطبة حتى وفاته سنة ٣٥٦هـ . وكان مما أملاه على طلابه كتابه الأمالي وفيه مختارات شعرية ونثرية مع شرح الغريب فيها. وأدخل دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

ومن تلاميذ القالي البارزين الزبيدي ، محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٧٩. وله مؤلفات لغوية أشهرها مختصر معجم العين للخليل.

ومن اللغويين الأندلسيين ابن سيدة علي بن إسماعيل الضرير المتوفى سنة ٤٥٨هـ . وله معجمان ضخمان: المحكم والمخصص، وقد تنبّه ابن سيدة في المخصّص إلى القرابة اللغوية بين بعض اللغات السامية وبين العربية. وإلى هذه القرابة تنبه معاصره ابن حزم أيضًا في كتابه: الإحكام في أصول الأحكام، حيث ذهب إلى أن العربية والعبرانية والسريانية كانت جميعًا لغة واحدة. **وبذلك فإن ابن سيده وابن حزم حفّزا الأوربيين إلى علم فقه اللغات**

السامية.

ومن اللغويين الأندلسيين الأعلم الشنتمري، يوسف بن سليمان المتوفى سنة ٤٧٦هـ . وهو معاصر لابن سيدة وابن حزم، وشارح الدواوين الستة لأعلام الشعر الجاهلي.

في مجال النحو: اهتمّ الأندلسيون في البداية بدراسات الشرقيين وشرحها وخاصة الكتاب لسيبويه.

ومن اللغويين الأندلسيين من اهتمّ بالنحو أيضًا مثل الشنتمري والسيد البطليوسي.

ثمة مشروع لتطوير النحو قدمه ابن مضاء القرطبي، أحمد بن عبدالرحمن المتوفى سنة ٥٩٢هـ . صاحب كتاب الرد على النحاة نشره الدكتور شوقي ضيف مع تحليل لآرائه التي رفض فيها نظرية العامل في النحو.

ومن النحاة الأندلسيين الشلوبين، عمر بن محمد المتوفى سنة ٦٤٥، وآراؤه مشهورة في كتب النحو، وعاصره ابن عصفور، علي بن مؤمن المتوفى سنة ٦٦٣ وله الممتع في الصرف، والمغرب في النحو، وهما منشوران.

وابن مالك، محمد بن عبدالله، إمام في النحو، وله نحو ثلاثون مؤلفاً أشهرها ألفيته في النحو.

البلاغة والنقد: عُنيت الأندلس بهما وظلت حتى نهاية القرن الرابع الهجري تعتمد على مصادر المشارقة. وفي مطلع القرن

الخامس بدأ الأندلسيون يؤلفون في الموضوعين السابقين، وأول مؤلّف وصلنا في هذا الباب كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتابي، أبي عبدالله محمد المتطبّب المتوفى سنة ٤٢٠، وفيه تقسيم للتشبيه من حيث المادي الحسي والمعنوي الذهني، ومن حيث اللون والصورة والهيئة والتركيب مستشهداً بأشعار الأندلسيين حتى زمانه، حققه وقدم له الدكتور إحسان عباس.

أول كتاب للأندلسيين عُني بمباحث أساليب الكتابة البلاغية إحكام صنعة الكلام للكلامي أبي القاسم محمد بن عبدالغفور المتوفى في منتصف القرن السادس الهجري، تطرق فيه إلى أبواب المعاني، وأنواع الأسلوب في الكتابة، وهو مطبوع بتحقيق محمد رضوان الداية.

يتصدّى ابن رشد لعلوم البلاغة بأسلوب فلسفي في شرحه لكتابي الخطابة والشعر لأرسطو. وكان ابن سينا قد لخّص قبل ابن رشد كتاب الشعر، فأعاد ابن رشد تلخيصه وشرحه، ويتطرق إلى فكرة الصورة الشعرية.

من النقاد الأندلسيين حازم القرطاجني المتوفى بتونس سنة ٦٨٤هـ، وقرطاجنة مولده، ومرباه في شرق الأندلس. له كتاب في النقد يسمى منهاج البلغاء وسراج الأدباء. سقط منه قسمه الأول وسلمت منه ثلاثة أقسام تتناول صناعة الشعر والمعاني والمباني والأسلوب، وهو محقق ومطبوع. قدم له وحققه محمد الحبيب بن

الخوجة.

العلوم العقلية:

نقصد بها الفلسفة وعلم الكلام. وأول من برز في هذه العلوم بالأندلس ابن مَسرّة، محمد بن عبدالله. ولد في قرطبة ٢٦٩هـ، وكانت آراؤه مزيجًا من الاعتزال والفلسفة والتصوف. اتهمه بعض الفقهاء في عقيدته، فاعتزل عن الناس، وكان تلاميذه يتناقلون آراءه سرًا. وواجه أتباع ابن مَسَرّة اضطهادًا وملاحقة، لكنهم أسسوا لدراسات في الفلسفة والمنطق تواصلت في الأندلس وأثّرت على أوربا.

يُعدّ ابن باجة المتوفى سنة ٥٣٣هـ أول فيلسوف أندلسي بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وكان أيضًا شاعرًا مبدعًا وناثرًا بليغًا، اهتمّ بشرح كثير من أعمال أرسطو، وشَرَح المنطق للفارابي والأدوية المفردة لجالينوس. وله تصانيف في الرياضيات والهندسة والفلك، واتجاهه في الفلسفة الوصل بينها وبين الدين.

خلفة في الفلسفة رجلان عظيمان بلغا بالفلسفة ذروتها وهما ابن طفيل وابن رشد.

ابن طفيل، أبو بكر محمد القيسي المتوفى سنة ٥٨١هـ واصل أعمال ابن باجة بشرح بعض كتب أرسطو، واشتغل بالطب في غرناطة، ثم أصبح طبيبًا لسلطان الموحدين يوسف بن عبد المؤمن في مراكش، واشتهر في عصره إلى اليوم بقصة حيّ بن يقظان

وسيأتي ذكرها في النثر الأندلسي.

وابن رشد، أبو الوليد، محمد بن أحمد، توفي سنة ٥٩٥هـ، أكبّ في بداية حياته على دراسة الفقه وله كتاب معروف فيه يسمى بداية المجتهد ونهاية المقتصد وهو مطبوع، ولا يزال مرجعًا في الفقه.

درس الفلك والطب، وله فيهما رسائل وكتب، ومن كتبه في الطب كتاب الكليات وكتاب شرح على أرجوزة ابن سينا في الطب، وتُرجم الكتابان إلى اللاتينية، وطبع الأول في البندقية سنة ١٨٨٢م.

وضع ابن رشد شروحًا مطوّلة ومتوسطة وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو.

تُرجمت أعمال ابن رشد الفلسفية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وأخذت تُدرّس في الجامعات الأوربية بايطاليا وفرنسا وإسبانيا. لكن الكنيسة الأوربية وقفت ضد أفكاره، وحاربت من كان يدرّس فلسفته واعتبرته زنديقًا رشديًا. وقرر المجمع البابوي في أوائل القرن السادس عشر لعن كلّ من ينظر في فلسفة ابن رشد، ورغم ذلك ظلّ له أنصار كثيرون، **وظل يُدَرّس في الجامعات الأوروبية حتى يومنا هذا. وكان لأفكاره أثر بعيد في قيام حركة التحرر والإصلاح الديني في النهضة الأوربية.**

العلوم الطبيعية:

الإسلام دعا أبناءه إلى الاهتمام بآيات الأنفس وآيات الآفاق، ووجّه البشر إلى النظر في أسرار الخلق والطبيعة، وجمع بين الدنيا والآخرة. وحثّ الأمة الإسلامية على الاهتمام بكل احتياجات الفرد والجماعة في جميع المجالات. ولذلك تطوّرت علوم الفلك والطب والصيدلة والرياضيات جنبًا إلى جنب مع العلوم الإسلامية والإنسانية في دائرة الحضارة الإسلامية.

وفي الأندلس برز هذا الاهتمام بعد الفتح الإسلامي، وكان في البداية عن طريق نقل هذه العلوم من الشرق، ثم برز المبدعون.

في الفلك والرياضيات: ظهر علماء كبار من مثل عباس بن فرناس المتوفى سنة ٢٧٤هـ . وكان فلكيًا رياضيًا، إضافة إلى اهتمامه بالفلسفة والموسيقى والشعر. صنع نموذجًا لقبّة السماء بأفلاكها وغيومها، وحاول الطيران بأن كسى نفسه بالريش.

أول رياضي كبير ظهر في الأندلس مسلمة المجريطي المتوفى سنة ٣٩٨هـ وله شرح لقبّة الفلك لبطليموس، تُرجم إلى اللاتينية في بازل بسويسرا سنة ١٥٣٦م بعنوان: سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها. وتُرجمت له أيضًا كتب أخرى في الاسطرلاب والفلك.

ومن أهم تلاميذ مسلمة أبو القاسم أصبغ بن محمد الغرناطي المتوفى سنة ٤٢٥هـ ، وله كتب نقلت إلى اللاتينية.

من تلاميذه الكرماني، عمرو بن الرحمن المتوفى سنة ٤٥٨هـ وله كتب في الرياضيات والفلك، وهو أول من أدخل رسائل إخوان

الصفا إلى الأندلس.

في القرن الخامس ظهر واحد من أعظم علماء الفلك والرياضيات هو الزرقالي القرطبي المتوفى سنة ٤٧٢هـ، ترجمت أعماله إلى اللاتينية واستفاد منها الأوربيون.

في القرن السادس ظهر في أشبيلية عالم رياضي كبير يعتبر من الرياضيين العالميين وهو البطْرَوجي، أبو إسحق نور الدين. وله كتاب في الفلك فيه نظريات جديدة عن مدارات حركة الكواكب السيارة تنقض نظرية بطليموس في كتابه المجسطي. وتُرجم هذا الكتاب في مطلع القرن السابع إلى اللاتينية والعبرية، **ويظهر أن كبلر الالماني (١٥٧١ -١٦٣٠م) اطّلع على نظريات البطروجي وصاغ منها نظريته الفلكية التي استخرج منها نيوتن قانون الجاذبية. ولذلك يرى بعض الباحثين أن أبا علم الفلك الحديث ليس هو «كبلر» بل البطْروجي الإشبيلي المسلم.**

في الطب: ظهرت بالأندلس حركة علمية باهرة، ومن بين قائمة الأطباء الأندلسيين نذكر الزهراوي، أبا القاسم خلف بن عباس، وهو المنسوب إلى مدينة الزهراء غرب قرطبة. ألف موسوعة طبية في ثلاثين جزءًا بعنوان: كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب العام وفي الصيدلة وفي الجراحة. وترجم قسم الجراحة في القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللاتينية، ثم تُرجمت أقسام أخرى منه. وانتشرت هذه الترجمات في البلدان الغربية،

وظل قسم الجراحة منه يدرس في الجامعات الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادي. **ويعدّ الأوربيون الزهراوي إمامهم في الجراحة، ويعدّ بحق أبا الجراحة العالمية كما يعدّ البطْروجي أبًا لعلم الفلك العالمي.**

في الأندلس بيوت توارثت علم الطب، مثل بيت بني زهر في أشبيلية، جدّ هذه الأسرة عبدالملك وعليه تتلمذ ابنه أبو العلاء، الذي نُشر كتابه النكت في الطب بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٩١١م.

وعليه تتلمذ ابنه عبدالملك، واشتغل الأطباء بمصنفاته، ومن مؤلفاته كتاب التيسير وهو في الطب العملي (الكلينيكي)، ويعدّ أعظم طبيب مسلم عمل بعد الرازي، كما يقول الدوميلي.

نذكر أخيرًا أن أبا الوليد ابن رشد فيلسوف الأندلس المتوفى سنة ٥٩٥هـ له كتاب الكليات في الطب، وترجم إلى اللاتينية وطبعت الترجمة سنة ١٤٨٢م وأعيد طبعه مرات. والجمع بين الفلسفة والطب نراه عند أكثر من عالم مسلم مما يدلّ على اهتمام الثقافة الإسلامية بالجانب العقلي والروحي والمادّي بشكل متعادل.

علم الصيدلة: تطوّر مع علم الطب لما بينهما من علاقة، وقائمة الصيادلة الأندلسيين طويلة، نرى أسماءهم في كتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جُلجُل أبي داود سليمان بن حسان. وابن

جلجل هذا من الصيادلة، وله كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة.

من الصيادلة من اهتمّ بالأشجار والأعشاب والفلاحة لارتباطها بالعقاقير. ومنهم أبو الحجاج الأشبيلي وله كتاب المقنع في الفلاحة ألفه سنة ٤٦٧هـ، ونشره مجمع اللغة العربية الأردني. ومنهم ابن العوام أبو زكريا يحيى بن محمد صاحب كتاب الفلاحة المنشور بمدريد، وهو موسوعة تاريخية في علم النبات.

أهم صيادلة المسلمين ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد، وهو ليس بأندلسي، لكنه تلميذ صيدلي أندلسي هو ابن الرومية الأشبيلي، محمد بن مفرج المتوفى سنة ٦٣٧هـ .

ابن البيطار توفي سنة ٦٤٦هـ بعد أن قدّم خدمات علمية جُلّى للصيدلة، وأهمّ ما خَلّفَهُ كتابان الأول: جامع لمفردات الأغذية والأدوية مطبوع في القاهرة، ويذكر أسماء الأدوية باليونانية، ويضيف إليها أسماءها بالفارسية والبربرية والإسبانية الدارجة. والثاني: المغني في الأدوية وترجم كتابه الجامع إلى الفرنسية والألمانية.

نحن ندعو بجد لإعادة الحالة المذهبية إلى وضعها الطبيعي عبر إشاعة العقلانية المطلوبة وروح الحوار الإسلامي البناء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبر عنه بـ«حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية».

محمد علي التسخيري

عطش هاجر

عطش . سعي. زمزم

هذه الكلمات تندرج في منظومة البناء الثقافي الإسلامي للكائن البشري.. هذا الكائن الذي خُلق ليحمل الأمانة الكبرى وليكون خليفة الله في الأرض.

العطش أو الظمأ أو (تشنگي) بالفارسية ترمز في النصوص الدينية والأدبية إلى شوق للارتواء.. وهذا الظمأ موجود في الكائن البشري، وهو الذي يدفعه لأن يتحرك ليرتوي .

وإذا لم يحسّ بالعطش لا يتحرك ولا يطلب الماء.

والذين على طريق كمالهم، إنما أحسّوا بالعطش أولاً ثم تحركوا نحو الوصول إلى المطلوب.

القرآن الكريم يرى كل البشرية ظمأى، وتسعى للارتواء، المؤمن منهم والكافر. لكنّ الكافرين يسعون إلى سراب بدل الماء:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وكلّما كان عطش الإنسان اكبر كان سعيه أعظم..

ولذلك يدعو مولانا جلال الدين الرومي إلى طلب العطش لا الماء، يقول:

آب كم جو تشنگی آور بدست تا بجوشد آبت از بالا و پس

أي: لا تكثر من طلب الماء، بل حاول أن تنال العطش/ كي تنفجر في داخلك الينابيع من كل الجهات.

والمتنبي يشعر بالظمأ الشديد، غير أنه يشعر معه بالخيبة لأنه وحد بدل الماء هطول المصائب عليه:

أظمتني الدنيا فلما جئتها مستسقيًا مطرت عليّ مصائبا

وأمتنا تحتاج إلى:

١ – أن تشعر بالعطش

٢ – أن تتحرك نحو الماء لا نحو السراب

ولنا في السيدة هاجر عليها السلام أسوة حسنة، فقد عطشت، وسعت بين الصفا والمروة، ثم على أثر هذا السعي أنفجرت (زمزم) لتكون منهلاً رمزيًا وحقيقيًا للحجيج على مرّ العصور.

وحجاج بيت الله الحرام يسعون على طريق هاجر سبعة أشواط، وينهلون من ماء زمزم. عسى أن يكون في هذه الرموز الثقافية الحضارية الخالدة ما يفعّل مسيرتنا نحو العودة الحضارية. وما ذلك على الله بعزيز.

في معنى
التسامح الإسلامي.. وتجلياته

زكي الميلاد *

• التسامح هو امتزاج بين الفكر والأخلاق • في الحديث عن التسامح يغيب الحديث عن التسامح بين المسلمين أنفسهم • في الإسلام أعظم منابع للتسامح • متى ما وجد التنوير وُجد التسامح •التعصب لا يرى الحقيقة إلاّ في عقل صاحبه وهو أخطر ما يصاب به العقل • التسامح هو مظهر قوة الضمير وشفافية النزعة الإنسانية وعظمة الروح الأخلاقية.

التسامح.. المعنى والمجال

لقد تحددت العديد من المعاني لمفهوم التسامح، بحسب المجالات التي ارتبط بها. ومع تعدد هذه المعاني إلا أنها تتقاطع فيما بينها، وتشترك في الإطار الذي يتصل بفلسفة هذا المفهوم. الفلسفة التي هي نقيض التعصب والأحادية والإكراه والموقف القسري، والتي لا ترى في التعدد والاختلاف حرجًا ومضرة، ولا ترى في البحث عن الحقيقة نهاية واكتمالاً.

ومن المجالات التي استعمل فيها التسامح، مجال اللغة، وفي هذا المجال يأتي التسامح، كما جاء في تعريفات الجرجاني،

* - كاتب ومفكر من المملكة العربية السعودية.

بمعنى: «أن لا يعلم الغرض من الكلام، ويحتاج في فهمه إلى تقدير لفظ آخر. أو هو استعمال اللفظ في غير الحقيقة، بلا قصد علاقة معنوية، ولا نصب قرينة دالة عليه، اعتمادًا على ظهور المعنى في المقام، فوجود العلاقة يمنع التسامح».

وفي المجال الاجتماعي يستعمل التسامح بمعنى السهولة في المخالطة والمعاشرة، وهو لين في الطبع، في مظان تكثر في أمثالها الشدة. والسهولة واللين تارة تكون بالكلام، وتارة تكون بالسلوك. تكون بالكلام مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ فقل لهم قولاً ميسورًا﴾، وقد فسر الفخر الرازي القول الميسور، بالقول اللين والسهل. ومصداقًا أيضًا لقوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾.

ويرجع الفخر الرازي في تفسيره الكبير أمر الله لموسى باللين في مخاطبة فرعون، لوجهين:

الأول: إنه كان قد ربّاه فرعون، فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق.

الثاني: إن من عادة الجبابرة إذا غلظ لهم في الوعظ، أن يزدادوا عتوًا وتكبرًا، والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر، فلهذا أمر الله تعالى بالرفق.

وتكون السهولة واللين بالسلوك، مصداق قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ

حَوْلِكَ ﴾وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وفي المجال الديني يستعمل التسامح بمعنى إبداء السماحة لمخالفي المسلمين من جهة الدين، وهذا المعنى في نظر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، اصطلح عليه العلماء الباحثون عن الأديان من المتأخرين في أواخر القرن الماضي الهجري، أخذًا بالحديث النبوي «بعثت بالحنيفية السمحة»، وقد صار هذا اللفظ حقيقة عرفية في هذا المعنى.

وربما عبّروا عن معناه سالفًا كما يضيف الشيخ ابن عاشور، بلفظ التساهل، وهو مرادف له في اللغة. ويرى ابن عاشور أن الاصطلاح الذي خص لفظ التسامح بمعنى السماحة الخاصة تجاه المخالفين في الدين، كان حقيقًا بأن يترك مرادفه في أصل معناه، ولذلك هجروا لفظ التساهل، لأنه يؤذن بقلّة تمسّك المسلم بدينه، فتعين لفظ التسامح للتعبير عن هذا المعنى، وهو لفظ رشيق الدلالة على المعنى المقصود، ولا ينبغي استبداله بغيره.

وفي اصطلاحات المعاصرين كما جاء في كتاب: «المعجم الفلسفي»، فإن التسامح يأتي بمعنى أن تترك لكل إنسان حرية التعبير عن آرائه، وإن كانت مضادة لآرائك، وأن يحترم المرء آراء غيره، لاعتقاده أنها محاولة للتعبير عن جانب من جوانب الحقيقة. والتسامح كما يقول غوبلو، لا يوجب على المرء التخلّي

عن معتقداته، أو الامتناع عن إظهارها، أو الدفاع عنها، أو التعصب لها، بل يوجب عليه الامتناع عن نشر آرائه، بالقوة والقسر والقدح والخداع.

والذي يفهم من تلك المعاني والاستعمالات، أن التسامح هو امتزاج بين الفكر والأخلاق، وتعبير عن موقف فكري من جهة، وموقف أخلاقي من جهة أخرى. موقف فكري يحدد طريقة التعامل مع المفاهيم والأفكار المغايرة على مستوى النظر، وموقف أخلاقي يحدد طريقة التعامل مع المفاهيم والأفكار المغايرة على مستوى العمل.

هل يوجد تسامح بين المسلمين؟

لقد استحسن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في كتابه: «أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»، ما ذهب إليه علماء المسلمين في أواخر القرن الهجري الماضي، حين حددوا مجال التسامح في ما يخص المخالفين للمسلمين من جهة الدين، ووافقهم الشيخ ابن عاشور على هذا التحديد، وعلى هذا الرأي.

وفي هذا النطاق، جاءت المناظرة الشهيرة بين الشيخ محمد عبده وفرح أنطون، في بداية القرن العشرين، التي تطرقت إلى موضوع التسامح، وعلاقته بالعلم والفلسفة بين المسيحية والإسلام. وفي هذا النطاق أيضًا، جاء كتاب الشيخ محمد الغزالي الذي حمل عنوان: «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام»،

إلى جانب أعمال وكتابات أخرى.

ونحن لا نعترض على هذا المعنى بالتأكيد، ولكن وجهة النظر تتعلق بهذا الحصر والتحديد الذي يكاد يغيب فيه عنصر التسامح بين المسلمين أنفسهم، مذاهب وجماعات وأفرادًا، أو لا يكون مشمولاً بهم. وكأن ليس هناك ضرورة أو مبرر للتسامح بين المسلمين، أو ليس هناك موضوع وابتلاء يوجب الحاجة إليه.

والحال كما نعلم، ليس كذلك على الإطلاق، فواقع المسلمين كما يتراءى للجميع، يظل شاهدًا على حاجتهم الملحة لمفهوم التسامح. المفهوم الذي يكاد يكون غائبًا أو مهملاً أو منسيًا بين المسلمين، وليست له قوة المعنى في حياتهم الفكرية والدينية، وليست له عظمة التجلّي، وفاعلية التخلّق، خصوصًا عندما تشتدّ الخلافات والنزاعات بين المسلمين، ففي مثل هذه الظروف لا يكون التسامح في العادة هو سيد الموقف، أو النداء الذي يكون عاليًا ويصغي إليه الجميع، والسؤال: لماذا؟

والعجيب حقًا أن من النادر جدًا أن تجد كتابًا مؤلفًا في موضوع التسامح بين المسلمين، ولا أدري إذا كانت هذه الحقيقة تبعث على الدهشة عند الكثيرين من الغيورين على الإسلام ومستقبل المسلمين، أو عند بعضهم على الأقل، فهل يصدق هذا الأمر حقًا؟

والإسلام الذي فيه أعظم منابع التسامح، إلى درجة أن نجد الشيخ ابن عاشور يقول: «يحق لنا أن نقول أن التسامح من

خصائص دين الإسلام، وهو أشهر مميزاته، وأنه من النعم التي أنعم بها على أضداده وأعدائه، وأول حجة على رحمة الرسالة الإسلامية المقررة بقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالَمينَ﴾...»

والحقيقة أن كل ما في الإسلام من قيم ومبادئ وأخلاقيات ومفاهيم، هي من منابع التسامح في الإسلام، والسؤال أين ذهبت هذا المنابع وتجلياتها بين المسلمين، الذين تطحنهم النزاعات والخلافات منذ زمن طويل، وترتفع في حاضرهم عاليًا خطابات التكفير، ودعوات العنف، والرغبة في القتل، بصورة هي الأخطر من نوعها في تاريخ المسلمين الحديث. وكأنّ منابع التسامح قد جفّت في الإسلام، أو أن هذه المنابع ليس لها أساس في الإسلام، وكأن الأصل في الإسلام هو التعصب والتطرف والتكفير.

والمشكلة أن تاريخ المسلمين الفكري لا ينقل لنا تراثًا لامعًا ومتخلّقًا بالتسامح، بقدر ما ينقل لنا مشاهد ومواقف متفرقة ومتناثرة، وكأنها خارجة عن السياق العام، وليست هي السياق نفسه، وحتى هذه المشاهد والمواقف لا نأتي على ذكرها إلا لمامًا، ولا نستحضرها بالطريقة التي نبرز فيها عاليًا مفهوم التسامح. والى اليوم والتسامح لا يشكل في حياتنا الفكرية حضورًا متجليًا وخلاقًا، ينفذ إلى عقولنا بقوة إشعاعه.

وإذا كان التسامح ينبعث في الأمم التي تُبتلى بالنزاعات الفكرية، وتظهر فيها الصدامات الدينية، أو الحروب الدينية،

فنحن مرّت علينا وما تزال تمر علينا مثل هذه النزاعات الفكرية والصدامات المذهبية، فلماذا لم ينبعث التسامح فينا، لذلك جاز لنا التساؤل: هل يوجد تسامح بين المسلمين؟

التسامح والتنوير

الاقتران الذي يجري بين التسامح والتنوير، هو اقتران صائب وفعال. فمتى ما وجد التنوير وجد التسامح، ومتى ما غاب التنوير غاب التسامح، وكلما انتشر التنوير انتشر التسامح، وكلما تراجع التنوير تراجع التسامح، لأن التنوير هو نقيض التعصب، ليس هذا فحسب، وإنما لأن التنوير لا يتيح مجالاً للتعصب، ويجعل من التعصب علامةً وسلوكًا منبوذًا ومكروهًا، يمقت صاحبه، ويؤنب على هذا الفعل من يقدم عليه.

ولأن التنوير لا يرى في الاختلاف مذمة، ولا يجعل منه مصيبة، ولا يحترز منه، أو يقاومه، بقدر ما يجعل منه مصدرًا للثراء، ومنبعًا للرحمة والتسهيل، وسلوكًا لرفع الحرج ودفع العسر، ونهجًا لتلاقح الأفكار.

ولأن التنوير يجعل من التعدد فضيلة، ومن التنوع مكسبًا، ومن الأحاديث تحجرًا، ومن التماثل سببًا للرتابة والجمود. فالتعدد فضيلة لأن الأصل في الحياة هو التعدد، والتنوع مكسب لأنه يفتح المجال أمام انبعاث الطاقات، والأحادية تنتهي إلى التحجّر لأنها تغلق فرص الاستفادة من الطاقات المتعدّدة، والتماثل يكون سببًا

للرتابة والجمود لأنه يفتقد إلى آفاق التجدد.

ولأن التنوير يرفع عن الناس رهبة التعبير عن الرأي، والخوف من قول الحق، أو كتمان العلم، كما ويضع عن الناس إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، حتى لا يشعروا بالقصور في الفهم، ويعطلوا عقولهم لانعدام الشجاعة على ذلك.

ولأن التنوير فيه تعظيم لمنزلة العقل ومكانته، وفيه دفع وتحريض على إعمال العقل، والوصول إلى عقول الآخرين، على قاعدة أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله، ومتى ما حضر العقل غاب التعصب، ومتى ما حضر التعصب انغلق باب العقل، لأن التعصب لا يرى الحقيقة إلا في عقل صاحبه، ويخرج عقول الآخرين من دائرة الحقيقة.

وهذا أخطر ما يصاب به العقل، وأكثر ما تصطدم به الحقيقة، التي تأبى أن تجتمع في عقل واحد، فهذه ليست هي الحقيقة في منطق الحقيقة ذاتها. فالحقيقة هي تلك التي يتوزع نورها وإشعاعها على عقول الناس، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة فعليه أن يصل إلى عقول الناس. وهذه هي الحكمة التي جعلت ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ومن يريد الحكمة فعليه أن يفتش عنها في عقول الناس، لا أن يبحث عنها في عقله فحسب. ومن يصل إلى عقول الناس يكون أقرب الناس إلى الحكمة، لأن الذين يستمعون القول هم الذين يتبعون أحسنه، وهؤلاء هم الذين هداهم الله، وهم أولوا الألباب.

هذه هي عظمة التنوير الذي يفكك ويحطم بنية التعصب ويهزمها، ويجعلها مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، ويجعل من التسامح سلوكًا اجتماعيًا عامًا بين الناس، ومحببًا لهم، وليس مجرد سلوك فردي وخاص، يصدر من بعض الناس، ومن فئة قليلة منهم. وهذا هو التسامح الذي يضفي على حياة الناس متعة العيش والتعايش، التسامح الذي يترسخ ويتعزز باتساع ممارسته، أي أن التسامح يترسخ بالتسامح ذاته.

بيان أخلاقي من أجل التسامح

يتنامى في إدراك العقلاء والحكماء والمتنورين في الأمة ضرورة إعادة التأكيد والاعتبار لمفهوم التسامح، وضرورة أن يكون هذا المفهوم حاضرًا ومتجليًا في اجتماعنا وثقافتنا.

مفهوم التسامح على قيمته وأهميته الأخلاقية والعقلية، المعنوية والفكرية، يكاد أن يكون غائبًا، أو في حالة تراجع وانحسار، أو ليس له ذلك التجلي والحضور المفترض. وكأننا انقطعنا عن ذاكرتنا، التي تنقل إلينا صور ومشاهد ونماذج، تظهر لنا كيف أن التسامح كان يمثل قيمة عليا، أو كأننا فقدنا الارتباط بتراثنا، الذي طالما كان يرشدنا إلى تعاليمه وأخلاقياته وقيمه في التسامح والعفو والصفح، أو كأننا غفلنا عن ذلك التلازم بين الشريعة والتسامح، وكيف أننا نغلب مفهوم التسامح في وصف

الشريعة، بقولنا الشريعة السمحاء، ومن يكتسب المعرفة بالشريعة نصفه بالسماحة، وذلك لشدة العلاقة بين التسامح والدين، باعتبار أن الدين هو المعاملة، ومن أجل تأصيل مفهوم التسامح وتعميمه بين الناس، وتحويله إلى التزام ثابت وراسخ، يظهر في السلوك ويتجلّى في إعمال الفكر.

والحاجة إلى التسامح لأن الخطأ يصدر من الجميع، ولأن البشر ليسوا منزهين عن الخطأ، ولأن كل واحد من البشر وجد نفسه في موقف يطلب فيه التسامح، وقد يلح في طلبه أحيانًا لأنه صدر منه خطأ، ويكفي لهذه المواقف أن نتعلّم منها حاجتنا إلى التسامح، وحاجة الجميع إليه.

والحاجة إلى التسامح لأن الاختلاف من طبيعة البشر، ومن مقتضيات العقل، ومن ضرورات الاجتماع. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾، ولأننا نمارس الاختلاف ويمارس علينا، وهو من مشاهد الحياة اليومية. ومع وجود الاختلاف، نحتاج إلى التسامح، لكي لا يتحول الاختلاف إلى تباعد بين النفوس، ولكي لا يزرع الأحقاد بين الناس، ولكي لا يولد النزاعات بينهم. بل من أجل أن يكون الاختلاف رحمة بين الناس، وليثير لهم دفائن العقول، ويضفي عليهم متعة العيش والحياة.

والحاجة إلى التسامح لإظهار نوازع الخير، وكبت نوازع الشر

في النفوس، فالتسامح هو من تجليات النزعة الإنسانية الخلاقة، تلك النزعة المنبعثة من الفطرة الشفافة النقية: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وبقدر ما يظهر التسامح نوازع الخير في الذات، بقدر ما يكبت نوازع الشر في الآخر.

والحاجة إلى التسامح لأن البشر من طبيعتهم الضعف: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾، ويمرون بأطوار من الضعف، ضعف الطفولة، وضعف الشيخوخة: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾. وكل البشر يصدر منهم الضعف، والضعيف يحتاج إلى التسامح، ولا ينبغي استغلال هذا الضعف للاستقواء على الآخرين، أو إقصائهم وإلغائهم، أو هضم حقوقهم والانتقاص من حرياتهم، لأن الضعف قد يتحول إلى قوة، والقوة قد تتحول إلى ضعف.

والحاجة إلى التسامح لكي لا يكون التعصب بديلاً، ولكي لا يكون قمع الرأي وهيمنة الرأي الواحد ممكنًا، ولكي لا يكون العنف سبيلاً، ولكي لا يكون التفكير خيارًا. فقد اشتهر بين المسلمين كما يقول الشيخ محمد عبده في كتابه «الإسلام دين العلم والمدنية» وعرف من قواعد أحكام دينهم، أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الفكر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر، ويعلق الشيخ عبده على ذلك بقوله: «فهل رأيت تسامحاً مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من

هذا! وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق، بحيث يقول قولاً لا يحتمل الإيمان من وجه واحد من مائة وجه، إذا بلغ به الحمق هذا المبلغ، كان الأجدر به أن يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية، ويؤخذ بيديه ورجليه فليقى في النار».

والشيخ عبده بهذا الكلام، كان يواجه الإشكالية التي أثارها فرح أنطون في مجلة الجامعة المصرية حين قال: «إن تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوروبا، وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الإسلامي، دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحاً مع الفلسفة».

والقاعدة أن التعصب لا يواجه بالتعصب وإنما بالتسامح، والكراهية لا تواجه بالكراهية وإنما بالتسامح، التكفير لا يواجه بالتكفير وإنما بالتسامح، والعنف لا يواجه بالعنف وإنما بالتسامح. ولا ينبغي أن يفهم التسامح بوصفه موقف الضعيف أو ينم عن ضعف، ولا هو موقف الامتنان أو التعالي بإبداء الصفح والعفو من موقع الترفع على الآخرين، ولا هو موقف التردد والاضطراب واللاحسم، وإنما هو الموقف الذي يظهر قوة الضمير، وشفافية النزعة الإنسانية، وعظمة الروح الأخلاقية.

لكن متى يكون للتسامح كل هذه القوة والفاعلية والتجلي؟

يكون للتسامح كل هذه القوة والفاعلية والتجلي، حينما يتحول إلى موقف إنساني ثابت، والتزام أخلاقي راسخ، ومصدر للاستلهام، وحينما يكون هناك تضامن من أجل التسامح. لأن

الحمكة تتغلب على التعصب، والتسامح هو حكمة. ولأن المنطق يتغلب على العنف، والتسامح هو منطق. ولأن الشجاعة تتغلب على التهور، والتسامح هو شجاعة. ولأن الحرية تتغلب على التكفير، والتسامح هو حرية. بهذه الدلالات والمعاني ينبغي أن نفهم التسامح، وبهذا الإدراك ينبغي أن نتعامل معه.

والعالم اليوم بكل ثقافاته ولغاته وقومياته ومجتمعاته، يشترك في ضرورة تأصيل مفهوم التسامح وتعميمه بين الناس، وفي هذا الشأن، صدر إعلان عن منظمة اليونسكو، في دورتها الثامنة والعشرين المنعقدة في ١٦ نوفمبر ١٩٩٥م، أطلق عليه «إعلان المبادئ بشأن التسامح»، الذي حثّ على أن يكون اليوم الذي صدر فيه هذا الإعلان يومًا عالميًا للتسامح في كل عام. كما أن الأمم المتحدة جعلت من عام ١٩٩٦م عامًا دوليًا للتسامح. وقد اعتبر إعلان اليونسكو أن التسامح يعني «الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا، ولأشكال التعبير وللصفات الإنسانية لدينا، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير»، ولتعميم التسامح يدعو الإعلان إلى «تعليم الناس الحقوق والحريات التي يتشاركون فيها، وذلك لكي تحترم هذه الحقوق والحريات، فضلاً عن تعزيز عزمهم على حماية حقوق وحريات الآخرين».

التقريبيون عاشقون

العشق في منظومة الثقافة الإسلاميّة العرفانية هو تحرر الإنسان من ذاتيته وأنانيته، تحرره من كل حصار يقيّد فكره وحركته، تحرره مما يعانيه من إصر وأغلال.. هذا الإنسان المتحرر هو وحده الذي يستطيع أن يرى الجمال في الكون والحياة والإنسان.

الفرد القابع في «الطين» وفي «الحمأ المسنون» لا يستطيع أن يرى الجمال، وإن سعى بدافع من «ظمأ» فطري نحو الجمال فإنه يسعى نحو سراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

وإذا رأى المتحرّرُ الجمالَ عشقه وانشدّ إليه، وتصاعد في داخله الشوق إلى كل ما هو جميل.

هذه الأشواق إلى الجمال هي وراء كل حركة تكاملية في الإنسان، ولذلك فان العرفاء يدعون الله أن يزيد شدة نار الشوق في صدورهم، ويزيد اللهيب في قلوبهم. يقول الشاعر الفارسي:

الهي سينه‌اي ده آتش افروز

در آن سينه دلي و آن دل همه سوز

أي: يا ربّ هب لي صدرًا ملتهبًا

وفي هذا الصدر قلب مفعم بالحرقة

وجلال الدين الرومي في قصة الناي، يرى أنّ أنين الناي يعبّر عن هذه الأشواق، وأن ما في داخل الناي هو نار وليس هواء.. ويدعو على كل من ليست في داخله هذه النار أن يفنى ويموت:

آتش است آن بانـــک نـــاي و نيست باد

هـــر كه آن آتــش نـــدارد نيـــســـــت بـــاد

أي: إنها النار في صوت الناي وليس الهواء

وكل من ليس عنده هذه النار فإلى الفناء

تحـرر.. وجمـال.. وعشـق.. وأشـواق.. أشـواق إلى كـل كمـال في الكـون والحيـاة والإنسـان. هـذه المنظومـة تفسّـر لنـا الفـرق بـين الراسفين في أغلال ذاتياتهم وأنانياتهم، وبين المتحررين المتحركين على طريق الكمال.. والكامل المطلق هو الله سبحانه.

ومـن مظـاهر العاشـقين أن يتجهـوا إلى مـا فيـه الألفـة والمحبّـة والتفـاهم والانسـجام، لأنهـا المعـاني «الجميلـة» في علاقـات الإنسـان مـع الآخـر.. علـى عكس الراسـفين في أغـلال أنـانيتهم لا يـألفون ولا يؤلفـون.. ديـدنهم الخصـام.. وعـادتهم الصـدام.. لا يـرون في الحيـاة سـوى ذاتهـم، ويريـدون أن يفرضـوا هـذه الـذات علـى الآخـرين، وأن يجعلوها ميزانًا في تقويم كل شيء، وفي النظر إلى كل شيء.

والعلاقـة بـين المـذاهب الإسـلامية، أو بعبـارة أصـحّ بـين أتبـاع المذاهب الإسـلامية إن دخلـت سـاحة العاشـقين فإنـك سـتجد ثمـة الوحـدة والوئـام والبحـث عـن المشـتركات والتفـاهم والتعـاون في المتّفق عليه، ستجد الإعراض عن الصغائر والاتجاه نحو الأهداف الكبيرة الملقاة على عاتق خليفة الله في الأرض.

أمـا حـين تـدخل سـاحة المغلـولين بـذاتياتهم وأنانيـاتهم فـلا تـرى إلاّ التراشق بالتهم والبحث عن الإثارة والاستفزاز.

اللـهم اجعلنـا مـن العاشـقين.. فـإن كنـا عاشـقين كنّـا تقـريبيين.. وكنّـا مـن السـائرين نحـو جمالـك.. وكـل جمالك جميل.

القراء الكرام

المجلة تستهدف :

١ - تقديم مفاهيم التقريب وقضاياه باختصار، ومحاولة تطوير الأسلوب لينسجم مع حجم المقال والذوق الأدبي.

٢ - التركيز على الجوانب العملية القائمة في الساحة وفي الأذهان بشأن وحدة الأمة الإسلامية.

٣ - التوجّه إلى الثقافة العامّة للتنوير ولمعالجة الإشكاليات على ساحة أوسع من المهتمين بقضايا الأمة.

٤ - ربط قضية التقريب بالمشروع الكبير للأمة وهو تفعيل ثقافتها وتوجيه حركتها نحو استعادة وجودها الحضاري.

نتقدّم أولاً بالشكر لكلّ من ساندنا، ونطلب من القراء الكرام أن يتفضلوا علينا بملاحظاتهم ونقدهم ومساهماتهم على العنوان:

dr.azarshab@gmail.com